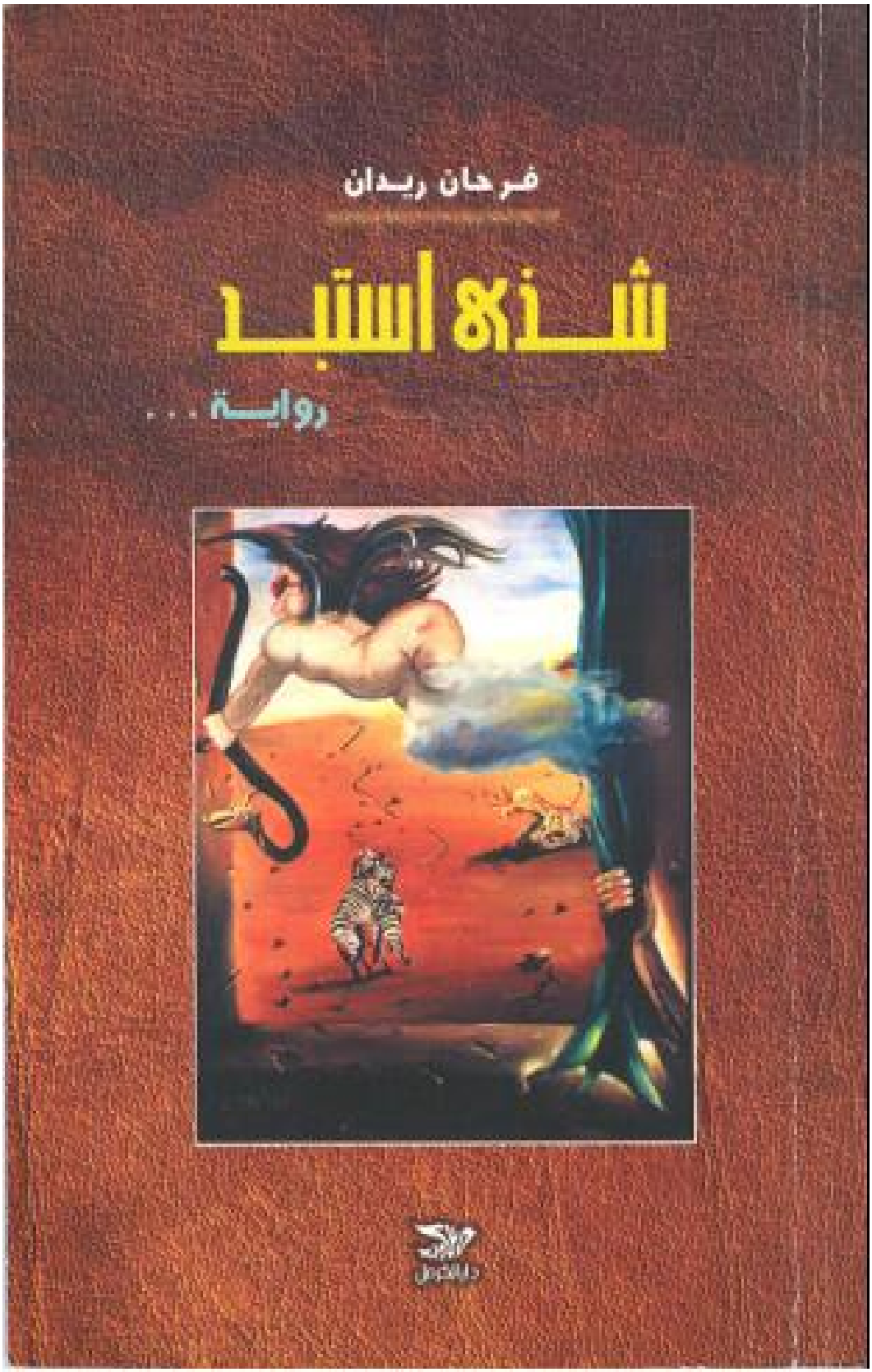

لوحة الغلاف : الفنان **نبيل بربر**

F. RIDAN

شَذىً استبَدّ

رواية : فرحان ريدان

إلى ابني أسَامةْ :

تذكَّرْتُ أني نسِيْتُ قلبي لدَيْكْ

1

فَوْرَ خروجهِ ، حملتُ نعارةَ الفخَّار إلى المصطبةِ الترابية ، قحطتُ منها الدُّهنَ ووضعتُهُ في صَاعٍ خشبي ، وحسْبَ أوامره ، دهنتُ جَوفَها بالدِّبس وأدَرتُها تجاه الشمس . حَامَ دبُّورٌ وحَط على شفَتها ، و لم أكَدْ أكنُسُ فناء الدار حتى صارت الدبابيرُ تربُقُ في النعارة بتراصّ عجيب حتى أنه لم يبقَ فيها فراغٌ يتسعُ لحبَّة فوْل ، ووسطَ دهشتي جاء صَوتُهُ : " خُذي ! " .. ورمى على صدري كيساً فارغاً من الخام الأسمر بحجم رئة بَقرَة ، ثم أتبَعَهُ بقطعة من المطاط السميك بطوْل شبْرين وثخانة قلمِ رصاص .. مشى تجاه الليمونة الموْرقة جانب الدرَج الحجري المؤدي إلى قاعته، قطفَ بعضَ أوراقها الخضراء بينما رُحْتُ أثبِّتُ المطاطَ في فوهة الكيس بإبرة تنجيد اللحف ، أنهيتُ القطبَ الأخيرة كيفما اتفق إذْ خطفَ الكيسَ من يدي وراحَ ينثرُ فيه أوراقَ الليمون . ومِنَ الغرفة التي نسمِّيها " الليوان " والتي هي بمثابة غرفتي ، رأيتُه يتقدمُ إلى النعارة وهو يَشُدُّ بابَ الكيس ويوسِّعُهُ ، ثم بخفة أطبقَ فوهة الكيس على فَمِ النعارة .. فاندَفَعتْ الدبابيرُ إلى رائحة الليمون وجعَلتْ الكيسَ يهتزُّ ويخفقُ مثلَ قَلب . أسرَعَ إلى مدخل الدار فأحاطَ به أعوانهُ ..وقفَ على البلاطة المرصُودة تحتَ قوْس القنطرة ، وإذْ رأتهُ عيونُ الفلاحين المحتشدين في الساحة ، سَكَنتْ دوْنَ أن يَرفَّ لها جفنٌ أو رمْش .. فَرَدَ ساقيه في هيئة قومندان وصَمَتَ كتمثال ، فلمْ يعرفْ أحدُ أعوانه كيف يقفُ ، و لم يعرفْ آخرُ ماذا يفعلُ بيديه . أومأ برأسه فظهَرَ من حَوْش الدار فتىً يقوْدُ بعيراً ، ووراءَهُ كهلٌ يحمِلُ سجَّادةً صغيرة من الصوف العجمي ، وما إن وقفا وسط الحشد حتى ظهَرَ إبراهيمُ الرشماني مقيداً بصفد فولاذي أورَمَ كاحليه ، ويداهُ موثقتان خَلفَ ظهره ، يدفعُهُ رجُلٌ ببارودة نوع فَلنْطة ، وعندما أجهَشَتْ " زادُ الخير " : " غَبنَكْ يا طَربُون الحبَقْ " .. شعرْتُ برغبةٍ في التبوُّل . أناخوا البعيرَ وفَرَدوا السجادةَ على الأرض ثم مدَّدوا إبراهيمَ فوقَها ، ورأيتُ إبراهيمَ يُلقي برأسه في هدوء على التراب ، فقدْ كان عرضُ السجادة أقصرَ من قامته ، لفُّوْهُ وصالبوا الحبالَ الغليظةَ على صدره حتى بَدا مقمَّطاً ، وبعدَ أن رفَعوْهُ وأحكموا وثاقَهُ إلى ظهْر البعيْر انتظروا صامتين . انقضتْ بُرهةٌ كأنها دَهرٌ وأنا أتأمَّلُ رأسَ إبراهيم عند ذَيْل البعير.. وتخطفني ، الآنَ ، رغبةٌ للبكاء وأنا اتذكَّرُ عينيه تتأملاننا وَجْهاً وجهاً ، ورُعبي لحظةَ نظرَ في عينيَّ . وعلى البلاطة المرصودة رفعَ هامتهُ ، فأفسَحَ معاونوه وأحاطوا به وهو **ينزلُ** الدرجات الحجرية السوداء المؤدية إلى الساحة . مَدَّ يُسراهُ فأسرعَ حارسُهُ وناولهُ الكيسَ ... شدَّ بابَهُ ووسَّعَهُ فانفلتَ دُبوران قبلَ أن يَكمَّ رأسَ إبراهيم وتطبقَ المطاطةُ الثخينة على عنقه . لم نسمعْ لإبراهيمَ صوتاً .. رأينا الكهلَ ذا السجادة يسكبُ الكازَ من سِرَاجٍ صَدِىءٍ على ذيْلِ البَعير ، ثم أولعَ الذيل بعوْدِ ثقاب . ذُعرَ البعيرُ وهَبَّ هائجاً ، دارَ حولَ نفسه دورتين واندفعَ تجاه الوعْر كأنما لفَظهُ بَطنُ بركان .

ظلَّ واقفاً تحت القنطرة حتى غابَ البعيرُ عن أنظارنا .. ثم استدارَ ودخَلَ إلى الدار ، وسمعتُ وقعَ خطواته على الدرجات الحجرية ، السوداء والمعشوشبة ، التي تصعدُ وتُفضي إلى قاعته . وإذا كان قد وصَلَ إلى هنا يوم أمس ، فإن اسمَهُ قد سبقَهُ بعشرين عاماً ، فقدْ كنتُ طفلةً يوم جاء رجُلٌ غريب إلى البلدة وسألَ عن بيت إسماعيل الأحمد ، وأذكُرُ أن صبياً أشارَ بإصبعه وقال له : " جنوب المطخ " .. قادَ الغريبُ بَغلتَهُ وتبعَ الصبي .. " عَمِّي بو عبدي ! " .. لم يغبْ صوتُ الصبي حتى صرَختْ " ثلجَة " من الداخل : " يا تعثيري يا إمي !! " ورأيتها تخرجُ دون غطاءِ رأسِها ، بقدمين حافيتين وتنورة مَلَسْ أسود وقدْ عَلقَ العجينُ على ساعديْها حتى المرفقين . أدخلَتْ يديها في عين الخرْج الكتاني المسدَل على البغلة ورفعَتْ رأسَ عِبدي:

" يا إمِّي عرفت من البارحة " .. وفتَحَتْ نحيبَها . وكانت قد رأت ابنَها عبدي في نومها كأنه مستلقٍ على بيدر الشعير عندما اقتربَ ديكٌ روميٌّ أسودُ منفوش وزرقَ فوقه . أخرجَ الغريبُ صُرةً وسلَّمها لاسماعيل الأحمد . وفي الليلة ذاتها جاء نايفُ الرمّاح وقال إن الثوارَ قد أغاروا على الحامية الفرنسية في أزرع ، وأن صقرَ **الجُرهُمي** تعربَشَ على سُوْر الثكْنة في منتصف الليل وزحفَ على بطنه حتى قنطرة المدخل الرئيسي ، إنتظرَ حتى صار الحارسُ الليلي تحتَه وضربَهُ بحجر الجاروش وانقضَّ عليه وقتلَهُ ، لم يشأ صقرُ أن يُطلقَ النارَ عليه " خاف يفيقوا اللي جوَّا " .. وإذْ أشعلَ صقرُ عودَ ثقاب إندفعَ الثوارُ الذين تلبَّسوا حجارةَ اللجاة و " تعربَشنا عَ السُّوْر وفتنالهم عَ المهاجع " .. وهكذا ومِنْ على شَفَة نايف الرمَّاح قفزَ اسمُ صقر الجرهمي إلى المخيلة ليصيرَ حكايا ، ثم زحفَ الجنرالُ ميشو على رأس جيشٍ جَرَّار لاحتلال جبل حَوران ، فباغتَهُ الثوارُ عند عَين المزرعة وهزموه .. وأسْمَيْنا صقراً كلَّ صبيّ وُلدَ يوم المزرعة فأخرجناهُ من الحكايا وجعلناهُ بذاراً ، و لم يَدُرْ في خلدي أنه سيأتي يومٌ أرى فيه صقرَ الجرهمي حقيقة واقعة حتى كان يومُ أمس :

أفَقتُ مع إنبلاج الفجر وخرجْتُ إلى بيت الخلاء ، وتذكَّرتُ إذْ صِرْتُ عند بئر الدار أني رأيتُ حُلما ، سحَبْتُ الماءَ بالدَّلو وسائلتُ نفسي : ما الذي يعنيه جدارٌ أزرقُ عليه صورةُ أميرِنا طراد المعمَّر ؟ إن في تلال السنديان وحدها عشرين جداراً على هذه الشاكلة ، ولكني تذكّرتُ ما تبقى من الحلم : سقطَ أنفُ طراد المعمر من الصورة وهَمَّ الأميرُ بالتقاطه ، غيْرَ أن الأزرقَ الذي يشكلُ أرضية اللوحة صارَ ماءً ، ورأيت الأميرَ طراد يغوصُ في الماء لالتقاط أنفِهِ دون جدوى .

عُدْتُ إلى فراشي وأنا أتوجَّسُ أمراً مريباً ، ولا أدري كيف سَهوْتُ ثم غفوتُ ، ولا أدري كم انقضى من الوقت حين أفَقتُ على أصوات أعيرة نارية وجلبة خيول وضجيج ، قفزتُ كالمجنونة لأجدَ أهالي البلدة متجمهرين في الساحة وقد عَلا صياحُهم ، بينما راحَ فرسانٌ أربعة ، لم أرَهُم من قبلُ ، يصرخون في الحشد كي ينتظم ، وارتفعَ صوتُ أحد الفرسان واضحاً : " كفى ! " وسادَ

صمتٌ وصار وَجهُ الفارس ملتقى أبصارنا .. فقال : " إرجعوا إلى الساحة لقد وصلَ الأمير ! " وما أن أكملَ عبارتَه حتى ظهرتْ كوكبةٌ من الفرسان في مدى مقلاع يتقدمُهُم خيَّالٌ على حصان أسود ، إنفردَ أمامَهم وهو يَرْهُو كأنه يحاولُ فَرْدَ جناحيه ، وعندما شَدَّ الفارسُ عنانَهُ خطفَ الحصانُ رأسَه تجاه السماء ودارَ متقافزاً في رُبع دورة كراقص شركسيّ ... فرأيتُ كفلَهُ اللامعَ وذيلَه الذي تقنطرَ ، والمهمازَ المشعَّ في جزمة الفارس ، وإذْ صاروا أمامنا رفَعَ الفارسُ ذو المهماز يُمناه عالياً فتوقفَ الفرسانُ خلفَه بَغتةً ، وسَرَتْ في الحشد همهماتٌ مبهمة لم أفهمْ منها شيئاً حتى لكَزتني زادُ الخير وهمسَتْ لي : " صَقر **الجُرْهمي** ! " فأصابني الذهولُ وأرعبني الظهورُ المباغتُ لصقر الجرهُمي هنا في تلال السنديان ، فهو الخصمُ الأشدُّ ضراوةً لأميرنا طراد المعمَّر الذي جمَعَ شؤونَ إمارته كلها في هذه الدار . رفعَ صقر الجرهمي جذعَهُ فوق سَرْج الحصان فحَبَسَ الناسُ أنفاسَهم :

" أيها الناس !
أعلنتُ حَوْرانَ إمَارةً
واتخذتُ تلالَ السنديان مقرَّاً
وأدخُلُ هذي الدارَ أميراً
أما حدودُ الإمارة فحيثُ ترمَحُ خَيْلي ويَلمَحُ طرْفي
وأما الذي سادَكُم عشرين عاماً ففي مَهَبِّ الذبابْ
أنفُهُ على الشِّيحْ ودَمُهُ يُلوِّثُ أعشاشَ الحَجَلْ
فإنْ كانَ بينكُم مَنْ يأسَفُ لَهْ
فليذهبْ على آثارِ الخيولْ
ويواريْه عن أنيابِ الضِّباعْ
أيها الناس !
جئتكُم غالباً ، وسَيفُ الغالبِ يَحْفِزُ الغوايَة !
فلا تَدلقوا أرواحاً فاترةْ
في مَدى سَيْفي ! .

2

حملتُ دَلوَ الماء ووضعتُه على البلاطة المرصودة تحت قنطرة البوابة ، كنَسْتُ المدخلَ ووقفتُ على البلاطة حافية ، دَلقْتُ الماءَ على قدميَّ أولاً ثم تابعتُه بالمكنسة وهو يسيْلُ على الدرجات الحجرية المنحوتة ، فانبعَثَ في نفْسي فرَحٌ صغير كأنما الماءَ إذْ يلامسُ الجسدَ يحمِلُ بعضَ عذاباته . تأمَّلتُ البلاطةَ المرصودة فاستفاقفتْ طفولتي الغافية وفاضَ بيَ الحنين : كم ملأتُ جُرنَ البلاطة بالماء لأبَرِّدَ فيه عُنقودَ العنب ؟ كم لعبتُ هنا مع يُسرى المعمَّر ؟ .. هنا ، على هذه البلاطة انتظرتُ السُّنونو عاماً كاملاً و لم يجيء ، هنا غفوْتُ في حُضن أمي على مرأىً من القمر .. وهنا بكيتُ أبي وحيدةً في رهبة الليل . هنا أشعُرُ أن البلاطةَ توشكُ أن تنطقَ ، إنها تَضجَرُ وتدخلُ أحلامي فأتذكَّرُ أني نسيتُها ، أستيقظُ فتسبقُني إلى مدخل الدار وتنامُ تحت القنطرة فاردةً طوْلها بعرض البوابة . والبوابة تتجهُ شرقاً وتتسعُ لنَاقةٍ مُحملةٍ بزكيبتي شِيْح ، وعلى البلاطة يرتكزُ عامودا البوابة ، وعليهما تستندُ القنطرةُ قَوْساً يَرقُبُ طلوعَ الشمس ، وعن جانبي العمودين ، وبارتفاعهما ، يستمرُّ الجدارُ الخارجي للدار بحجارته المنحوتة ، السوداء والمعشوشبة ، وبالتفافِهِ مثلَ سُوْرِ قلعة . وعلى الجانب الشرقي من الساحة ، مقابلَ البوابة ، تنهضُ بيوتُ الفلاحين المتراصَّة ، حيث تبرزُ نتوءاتٌ حادة من حجارة الدَّبش . وتحجبُ هذه البيوتُ الضوءَ المباشرَ عن البلاطة حينَ تكوْنُ الشمسُ بارتفاع صَفصَافَة ، وفي الظهيرة يقعُ ظلُّ القنطرة فوق البلاطة فتظلُّ باردةً حتى في أيام الصيف . وفي ليلة مُقمرة ، فإن خَيَالَ حَجَر من الشَّبَّة ذات البللورات الباهتة في بِركَةٍ عميقةٍ يأخذُ شَكْلَ غيمةٍ حَبَسَتْ أنفاسَها ، إن لونَ البلاطة المرصودة : هذه الغيمةُ في مرآة . أما جُرْنُ البلاطة فيَتَّسعُ خُفَّ جَمَل . إنه منحوتٌ في زاويتها الشمالية بعمقِ شبريْن ، وإسمُ هذا الجرن : جُرْنُ الرُّمانة ، فيَوْمَ كان بوطيوس الروماني حاكما للقدس إقتحَمَتْ كنعانيةٌ ديوانَ العلوم التلمودية حيث وقفَ ميشوبُ آدرُ واعظاً وقالتْ : " تَعظُ الناسَ لا تَزنوا وابنُكَ في بَطني ؟ " فسَكَتَ اليهودي مبهوتا و لم يقوَ على نطقِ كلمة ، وقال فتىً من مُريدي عيسى ابن مريم: " الحقُّ أنطقَها وأخرَسَهُ " . مَثُلُ آدرُ بين يدي بوطيوس الذي أبلغَهُ :

" أخرُجْ وعجلُكَ المقدَّس إلى تراخونيديتس " أي البلاد الصخرية بلغة اللاتين ، والتي هي **اللجاةُ**: بَحْرٌ من الطفِّ البركاني الأسود الذي إندفعَ وسَالَ وسط سهول حَوران ، ثم تجمَّدَ في شبْهِ منحرفٍ صخري قاعدتُهُ الكبرى في الجنوب وتمتدُّ من إزرعْ إلى شَهبا . إنه بحرٌ صخري يغمرُ مَوْجُهُ ألفَ ميل مربع ، ويمتد شاطئهُ الشرقي من شهبا جنوباً حتى بيار القَطا شمالاً على بعد أربعين ميلاً جنوبي دمشق، وفي السهول الشرقية المحاذية لبحر الصخر تنهضُ " تلالُ السنديان " يَلُفُّها غيمٌ يَنثُّ غموضاً ، وفوق أعلى تَلَّة فيها تبدو هذه الدارُ للعابرين في السُّهب قلعةً وادعةً وقد إتخذتْ مكانها الوطيد . وفي

الشمال من الدار ، على تلة صغيرة ، تيْنةٌ وحيدةٌ في كُروم المزار ، تَنُوْحُ على هابيل في صمت الليل ، وتَبْكيه حَليباً في تِيْنِ دموعها ، وتَرْنو ساهمةً إلى نُذور الأرامل، وبما تبَقَّى لها من رُوْح تَحْرُسُ نَوْمَ هابيل وتُحُوْلُ بين المقبرة ودَمِهِ شقائق الوَرْد .

ويَسُوْدُ الإعتقادُ أن ساكيروس الإبن البكر للقائد الروماني رومولوس هو الذي بَنَى هذه الدار ، فقدْ أوكَلَ الأبُ لابنه مَهمَّةَ بناء بُرْج حَرْبي لرصْد الأخطار المحدقة بالخاصرة الشرقية للإمبراطورية فكان أن بنى ساكيروس هذه الدار للإختلاء بعشيقاته بَعيداً عن بُصرى الشام ، وخرائط الحرب ، والعيون التي تبثها سافو حَوْلَهُ . غيْرَ أن الزوجةَ رأتْ حُلماً . ما حُلمكِ ؟ سألتْها العرافةُ "عرنوسُ ذُرَة كالوَتَد في صَدْر هذه القاعة ، ورأيتُ ، إرحمنا يا باخوس ، ثَمرَةَ تيْنٍ بيضاء يَقطرُ منها الرحيقُ تَدَحْرجَتْ خلسَةً على الأرض ، ثم صُعُداً على الجدار وابتَلعَتْ الوتد " ردَّتْ سافو .

نهضَتْ العرافةُ ونظرتْ في عيني سافو :

" إمرأةٌ يهودية من الجنِّ ، ماتَ زوجُها ، ساكيروس خانكِ معَها " ومَشَتْ العرافة تجاه باب القاعة وهي تَعُدُّ النقودَ الفضيةَ يشفتَيْها ، وقبْلَ أن تخرُجَ إلتفتَتْ إلى سافو وقالت دون مواربَة :

" جاءَها وهي في الدَّورة " . وقدْ تنبَّهَتْ اليهوديةُ ، هنا في تلال السنديان ، مُذْ إنطلَقَتْ سافو من بصرى الشام ، وهكذا فإنها لم تُفاجأ عندما رأتها واقفةً على البلاطة المرصودة مثلَ ذئبة . وإمعاناً في السخرية من سافو قَلبَتْ اليهوديةُ عشيقَها دِيْكاً ثم انقلبَتْ هي رُمانةً حمراءَ .. راحَتْ تتدحرجُ أمامَ الديك ، وراحَ الديكُ يطاردها ويلتقطُ حَبَّها الورديَّ في شبَق . وعلى البلاطة المرصودة فرَّتْ حَبةٌ وانقلبَتْ حَيَّةً حمراء قبْلَ أن يتمكَّنَ الديكُ من إلتقاطها . ورغم أن الرمانةَ تدحرجَتْ على البلاطة واستقرَّتْ في جُرنها على مسافة شِبْرٍ من سافو ، فإن الزوجةَ التي فقدَتْ صَوابَها ظلَّتْ تبحثُ ، بعينيها ، عن المكان المحتمل لاختبائهما . لكن دَمَ الحيض الذي لرائحته نفاذيةٌ كثيفة وباردة ، ذكَّرَ سافو بقوْلِ العرافة ، أدارَتْ أنفَها تُتَابعُ مصدرَ الرائحة .. وإذْ إنحَنَتْ فوق الرمانة وقد حَبَسَتْ أنفاسَها كي تشُمَّ .. أيقنَتْ أن لدَمِ الحيض رائحةَ ضفدعٍ متجمد في طنجرة ألمنيوم ، وعندما نظرَتْ تجاه الديك دارى وَجْهَهُ .. وذهلتْ سافو إذْ رأتْ أن الملمحَ الأبرزَ ، الدمغةَ ، التي تميِّزُ ساكيروس عن أيِّ رجُلٍ في الدنيا مُصَاغةٌ في هيئة الديك ، في عينيه خاصةً . إقشعرَّ بدَنُها وكَسَى جلدَها حبَّاتُ بُرغل جافة ولاصفَة ، وإذْ أيقنَتْ أنها مهزومة ، ماتَتْ منَ الغِلّ ، طَقَّتْ.

لمْ تسمحْ اليهوديةُ لساكيروس بدَفْن زوجته ، ظلتْ سافو مُسجَّاة على البلاطة المرصودة ثلاثة أيام بلياليها حتى وجَدَها آدَرُ ، وحمَلها بين يديه من تلال السنديان إلى شهبا ، وسَلَّمَها لقائد الحامية الذي أمَرَ بوضعها على عَرَبةٍ أميرية تجرُّها الأحصنة ويُحُفُّ بها المحاربون ، ومشى هو في مقدمة الموكب تجاه قنوات أولاً حيث معبدُ باخوس .. رَفَعَ الكاهنُ يديه وطلبَ الرحمةَ لسافو من إله العذوبة الرقراقة .

وثمة إعتقادٌ آخرُ يتفقُ مع هذه الرواية في أن ساكيروس هو الذي بنى هذه الدار ، ولكنه يؤكد أن ساكيروس في ليلة زفافه من سافو ، لم يرفضْ طلبَ عروسِه إصطحابَ وصيفتها إلى هذه الدار ، وإنه في الصباحية ، وفيما يُشبهُ النائم ، رأى سكّيناً يخترق بطيخةً فأمَرَ بإحضار عرَّافة " صَلخَدْ " التي ما إن سمعتْ حُلمَه حتى قادَتْه دون تردّد إلى مخدعِ سافو وصرخَتْ في وَجْه الوصيفة :

" إخلعي ! " .. ولم تكن الوصيفةُ سوى تيموندس ، المحارب الذي إقتحمَ بوابة عكّا . وإنتشرتْ في الناس براعةُ أرتميدا وسرعةُ تأويلها حُلمَ ساكيروس فاغتاظتْ عرَّافةُ بُصرى :

" ما كان لهذه الغبيَّة أن تعْرفَ لولا اليهودي التائه الذي يستمْرىءُ وهو يَلغُّ الفضائحَ الدَّبقة " في إشارةٍ إلى ميشوب آدر .. ثم أضافَتْ : " إن أرتميدا لا تعرفُ دبرَها مِنْ أسْتِها " .. فقدْ كانت عرافة صلخد تؤتى من دُبرها ، وزعمتْ عرافةُ بصرى أن تيموندس الذي تنكّرَ بزيِّ امرأة ، إرتبكَ عند مدخل هذه الدار حتى أنه لم ينتبه لجرن البلاطة المرصودة , فَزلَّتْ قدَمُهُ داخل الجرن وسقطتْ رُمانةُ نَهْدِهِ وتدحْرجَتْ بهدوء واستقرَّتْ في الجرن ، فوق قدَمِه ، وثمة رجُلٌ رصَدَتْ عيناه زلَّةَ تيموندس : ميشوب آدر . وهو الذي أعطى الرمانةَ المفتاحَ لأرتميدا . وجُرنُ الحصان هو إسمٌ آخرُ لجرن البلاطة المرصودة لكنه أقَلُّ شيوعاً من جُرْنِ الرمانة .. فقدْ جاءَ دُعاةٌ فاطميُّون من الفسطاط لينشروا دعوةَ التوحيد في بلاد الشام ، ولم يجدوا مشقةً في إستمالة القبائل التي كانت تتخبَّطُ بين أنقاض الدولة العباسية ، وعندما كَثُرَ أنصارُهُم هاجموا تلال السنديان واحتلوها وطردوا " سُكَيْنْ " من هذه الدار ، وسط إرتياح القبائل ومؤازرتها ، فقدْ تمادى سُكينُ ورجالُه في نَهب الأهالي ، وهتكِ حُرمات البيوت .. ولم يتورعوا عن المجاهرة بألوهة الحاكم ، وأوشكَتْ جهودُ الدعاة أن تُكلَّلَ بالنجاح عندما ظهَرَ بينهم مَنْ يتذمَّر من الأوامر الصارمة التي تصِلُهُم من مصر : النُّصَيْري . أولُ داعية جَاهَرَ برأيه ووصفَ الأوامر بأنها غبية ، فزجَرَهُ كبيرُ الدعاة :

" إنها أوامرُ سفيرِ القدرة " ردَّ النصيري حانقاً : " لا أطيقُ نَفْساً يابسَة وروحاً أشدّ جفافاً من الآجُرّ " ..فهدَّدوهُ وتوعَّدَهم .. وعلا صياحُهم هنا ، في قاعة هذي الدار ، ووصموهُ بالفاسق فانفجَرَ غاضباً : " إنكم تسلكون الدربَ كما تسلكُها الإبلُ " وخرَجَ من القاعة إلى الشُّرفة الشمالية ، وَهَمَّ أن يَنْزِلَ الدرجات الحجرية ، السوداء والمعشوشبة حينَ لَمحَ حركةً خاطفةً فوق قنطرة الدار ، إلتفَتَ إلى حَوْش الدار فلم يَرَ حِصانَهُ ، دارَ إلى الشرفة الشرقية وقفزَ إلى الساحة وهربَ إلى اللجاة . ثم جاءهم بعد شهر غازياً ، مؤلباً أنصارَهم ضدهم ، ومتحالفاً مع سُكين ، فحاصَروا هذه الدار وأخذوها من الدعاة . إبتَهَجَ سُكين باستعادة مَقرّه .. فملأ جُرنَ البلاطة المرصودة خمراً وَغَبَّهُ ، وجعلَ ينظرُ إلى الخيول التي هدأ ضبْحُها ، وإذْ لعبتْ الخمرةُ في رأسه جلسَ على البلاطة المرصودة ، تأمَّلَ وجُوهَ حُراسِهِ ، وخطرتْ له فكرةٌ :

" هاتوا حصان النصيري ! " فاقتادوا الحصان الظامىءَ الذي صعدَ درجاتٍ أربعَ حتى أدركَ الجرن.. ملأ سُكينُ الجرنَ بالخمرة ، وشربَهُ الحصانُ عن آخره .. وبَدَلَ أن يعودَ خارجاً إلى الساحة ، تابَعَ الحصانُ صعودَه على الدرجات الحجرية .. وعَبَرَ فوق البلاطة المرصودة وراحَ يتأمَّلُ فناءَ الدار ساهماً ، ثم دخَلَ الليوان كالنائم ، ولحظةَ خرجَ النصيري من القاعة ووقفَ على الشرفة الشمالية... إنطلقَ الحصانُ إليه صاعداً الدرجات الحجرية الثلاثين في خفة وحبور .. ففهمَ النصيري ما ينتظره ، دار إلى الشرفة الشرقية وقفزَ إلى الساحة ...

- هاتي الدَّلو .. وفُوتي لَ جوَّا !!
- أرْعبتِني !
- أدخلي يا حبيبتي ، يمكن يظنّوا عندكِ مقاصد !

سمعتُ نصيحةَ زاد الخير ، إذ إنه لم يمضِ على مقتل إبراهيم سوى أسبوع واحد .. أعَدْتُ الدلوَ إلى جرن البئر .. وعُدْتُ إلى الليوان .

3

خلعْتُ حذائي في العَتَبَة ومشيْتُ على البسَاط المصنوع من وَبْر الماعز . استلقيْتُ بين القنطرتين على فراشي الرقيق بعد أن رفعتُ عنه جلدَ الخاروف ، شبَكْتُ كفيَّ أسفلَ رأسي ورحْتُ أحملقُ في بلاطات السقف المنحوتة من الحجارة السوداء ، والممتدَّة على طول المسافة بين القنطرتين ، تأملتُ الجدران والكوى العلوية فوق الباب ، فأدرَكْتُ أني أهملُ بحق هذا الليوان الذي آواني وأمي بعد موت أبي والذي هو الآن بمثابة غرفتي وملاذي ، فقدْ كنا في كل ربيع نرممُ طينَ الجدران وزخارفَ الرفوف ، ثم نطلي البيتَ بالكلس الأبيض ..كم أحبُّ رائحة الكلس المذاب في الماء ! كم أبتهجُ إذْ ترسمُ امي زناراً أزرقَ على الجدار بارتفاع ذراع من الأرض !..وكثيرا ما فكَّرْتُ أن هذا الليوان في الأصل كان مخصصاً للحريم ، إذْ لا نوافذ له ، في حين توجد نافذتان لكل جدار في قاعة الأمير ، والقاعة مجلسٌ للرجال ونحن نُسميْها " المقعَدْ " ، وفي السُّلم الحجري العريض المؤدي إليه ثلاثون درجة حجرية ، سوداءُ ومنحوتة . وللقاعة شرفتان : شمالية وشرقية وبابٌ يتجهُ شمالاً ويُطلُّ على قوس القنطرة والفناء من ارتفاع ستة أمتار ..أحسَسْتُ خَدَراً في يدي ..غيَّرْتُ وضعيتي : أسندْتُ ظهري إلى القنطرة ومدَدْتُ ساقيَّ فداهمَني البكاءُ ، فقد كنتُ أجلسُ هكذا قُرْبَ أمي في عتمة الليل الذي يُطبقُ على القلب ، وكنتُ أسمعُ إرتعاشَ الكلمات على شفتيْها : " ..توكَّلتُ على الله الأحد ، الفرد الصمَد ، المنَزَّه عن الصفات والأزواج والعَدَد.. " فأفهمُ أنها تُردِدُ ميثاقَ وليِّ الزمان ، وإذْ تصمتُ أقتربُ منها وأغطي ساقيَّ باللحَاف :

- ياما !
- شوْ يا ضَوّ عيني ؟
- صحيح بدْها تقوم القيامة ؟
- يا ريتْ يا إمي منشان نرْتاحْ !

فأزدادُ ذعراً ، وتُضفي عتمةُ الديوان والفراغُ المتربصُ بين القنطرتين رهبةً على وَعظ أمي ، فأنصِتُ وأنا أبلعُ ريْقي وأتخيَّلُ في وجَلٍ كيف يُنصَبُ الميزان في مصر وتُحشَرُ الخلائقُ يوم الحساب . وتؤكدُ أمي أن الدوابَ والطيرَ ومخلوقات البحر ..ذاهبةٌ كلها إلى يوم الحشر ..وتُسْهبُ في التحليل وتسُوْقُ صُوَراً تفصيلية كأنها تراها . ولأن الثعابينَ تُرعبني فقد كنتُ ، دائماً ، أتخيَّلُ زحْفَ الأفاعي مُجاوراً لزحف البَشَر في هذا الإرتحال الطويل ، وأرى نفْسي على التخوم المتداخلة بين البشر والثعابين ..وأراها تتلوَّى ، لاصفةً ومُرقطة ، في دأب ومجالدة للفوز بما لا أفهمُ ..فأرتجفُ وألتصقُ بأمي التي تُضيف : " ..في آخر الزمان بيطلَعْ أعوَر الدجَّال من حَلَبْ ..وخلايق كثير بتصدقو .. يارب يكون

فينا خير بجاه النبي .. " ثم تتنهَّدُ وتحكي لي عن الشجرة التي بقدرة الله ، فتَحَتْ جذْعَها كرَحِم إمرأة وخبأتْ سيدَنا " الخَضْرْ " ..وإذْ قالَ سيِّدُ أريحا : "..إقطعوا الشجرة .." سمعتُ أنينَ الخَضْر ورَاعَني دَمُهُ الذي تفجَّر ، تهدَّجَ صوتُ أمي وأكَّدَتْ أن سيدَنا المسيح عائدٌ إلى الأرض ليملأها عدلاً ، وأن أسيادنا قادمون من الصين الجوانية وأولُهُم ، وعلى رأسهم ، سيدُنا الخضر الذي يقفُ على سُوْر الصين العظيم شامخا كالأرز ، ويهُزُّ قبضتَهُ متوعداً ، ثم يُجرِّدُ سيفَه ويُطوِّحُ به ، فتميْلُ الأشجارُ في غابات الشرق ليَعْبُرَ السيفُ الذي يَشُقُّ الهواء ، والذي يَنطِقُ نَصْلُهُ في لسَانٍ مُبيْن : قُلْ هو الله أحَدْ ..

- مريم !

نهضتُ إلى الباب فرأيتُ زاد الخير في فناء الدار تحملُ صينيَّةَ قَشّ صغيرة مغطاة بمنديل أبيض ، ففهمتُ أنها تأخُذُ طعاما للشيخ نصر الدين ، وأنها تريدُ أن أرافقَها ، فالشيخ يعيش وحيدا وهي لا تريد أن تصيرَ مُضغَةً في حلوق الناس .. قلتُ لها : " لحظة " ودخلتُ أغيرُ ملابسي : ارتدَيْتُ تنورة المخمل الأسود فانهَدَلَتْ على جسدي حتى الكاحلين ، عَقَدْتُ على خصْري إزارَ الجورسيه الشفيف المعرَّق فانسدلَ فوق التنورة وبطولها ، وضعتُ على رأسي وشاحَ الجورجيت الأبيض ..وتذكَّرتُ أن أمي أيضاً لم تكن تذهبُ إلى الشيخ وحدَها ، كما تذكَّرتُ أولَ مَرَّة رافقتُها :

قادتني من يدي في طريق المزار حتى وصلنا تنورَ أم شاهين ، ثم إنعطفنا يميناً في الزقاق الصخري المفضي إلى بئر الحمام ، ومن ساحة البئر توجَّهنا إلى مدخل حجري بلا باب ، ورأيتُ بيتاً من الحجر الأسود والطين الأحمر يتوسَّطُ فناءً صخرياً ، وحائطا من حجارة الدبش يَلُفُّ البيتَ والفناء ، وتينةً رمادية ساكنة .. نادَتْ أمي : " يا شيخ بوعلي " ووقفتْ تحت التينة وأعطتني صينية الزاد، حملتُها ومشيتُ حتى باب خشبي ذي ضلفتين ، الضيقة منهما مفتوحة ، دخلتُ البيت وقلتُ : " صبحَكْ بالخير " وقالت أمي : " لا تؤاخذنا يا شيخ هذا مِنْ قيمتنا " نهض الشيخُ وقال : " يسعدْ صباحكم يابا " .. تركتُ شحاطتي في عتبة البيت ومشيتُ حافية فوق بساط الصوف وقد مدَدْتُ ذراعيَّ بالصينية ، إقتربَ الشيخ ومَدَّ يَدَهُ ، اعتقدتُ أنه أمسكَ الصينيةَ فتركتُها ، وقعَتْ الصينية على الأرض وتدحرجَتْ بيضةٌ مسلوقة ، واندلَقَ صحنُ الدِّبس على البساط فبكيْتُ ، قالت أمي : " تزعَلْيشْ يا روحي " وحَمَلَني الشيخُ بين ذراعيه وقبَّلَني ، نظرتُ في وجْهِهِ فلم أرَ له عَيْنيْن ، مجرد تجويفين غائريْن

- مريم !

أجَبْتُ من الداخل " أيوَهْ .. أيوه .. لحظة ! " . خرجْتُ من الليوان ووضعتُ طرفَ الوشاح بين شفتيَّ كأني ألثمُهُ . خرجنا من الدار إلى الساحة ، ثمة عجوزان جالسان على حجرين قدام دكان قاسم ، إنهما صامتان كأنهما يتشمَّسَان ، وفي وسط الساحة نَفَشَ ديْكٌ رومي ريشَهُ وراح يتبخترُ

خَلفَ إناث الحَبَش ، اقتربتُ منه وركلتُهُ فأرخى ريشَهُ وابتعد ، قالت زاد الخير : " حَرام ! " فلم أُجبْ ، فكيف أوضح لزاد الخير أن هذا الكائن يستفزُّني ، وأني لا أستطيع منعَ نفسي من ضربه وأني أمقتُهُ أكثرَ إذْ يتخلى عن كبريائه دفعةً واحدة بمجرد أن أقتربَ منه ..وإذْ صرنا عند دار إبراهيم الرشماني أدَرْتُ وجهي إلى الناحية الأخرى وأسرعتُ خطاي كأني أهربُ من نفْسي ، تجاوزتُ الدار وأوشكتُ أن أنعطفَ إلى الزقاق الحجري ، لكن زاد الخير لم تكن بجانبي ، لقد دخلَتْ دارَ إبراهيم رغم عِلْمِها أن صقرَ الجرهمي بَثَّ عيونَهُ في الزوايا ، وهي تعْرفُ المخاطرَ التي تنتظرنا فيما لو رآنا أحدٌ ، لكنها لم تعدْ تحتمل ، إنفجَرَ حنينُها وتريد أن تبكي ، وجَدْتُها على المصطبة الترابية قدام البيت الغربي .. حَضنتُها وبكينا معاً . هدأتُ قليلاً ورحتُ أتأملُ الدار الخاوية ، ثمة ورقة بحجم الكف رعَشَتْ للريح ، إنها الحركة الوحيدة في هذه الدار التي طالما عَجَّتْ بالحياة والفكر والناس ، وفي أرض هذه الدار ، وفي فضة القمر ، وإذ بَسَمَتْ فينوس في سماء تلال السنديان .. أسْرَجَ رجُلٌ حصانه وأفرغَ في الخرج صَاعَ شعير ، ثم قادَ حصانه ونَزَلَ في الدرب الصخرية الضيقة التي تبدأ من كروم المزار ثم تنحدرُ وتلتَفُّ حول الصخرة الخاشعة قبل أن تنطلقَ وتتلوى مثل أفعى في سَهل هورا ، وفي فجْر اليوم التالي رأى الفضةَ ذاتها والنجمة ذاتها من " بيت الدين " في لُبنان ، تَرَكَ صاعَ الشعير وليرةً مجيدية وأردَفَ وراءَهُ صبيةً وعاد إلى تلال السنديان . إنه جَدِّي لأمي ، والصبية جدتي ، القابلة الأولى في تلال السنديان ، والمرأة الوحيدة التي عرفتْ القراءة يوم كان سامي باشا الفاروقي حاكما في الشام . كانت أرمَلةً في الثلاثين ولها ولدٌ في الرابعَ عشرة ، خليل أبو يحى ، خالي . ولأننا نُسمِّي القابلةَ " دَايْ " فقدْ طغى لقبُ :

" أم خليل الداي " على بديعة وهبه . وورثتْ أمي المهنةَ عن أمها فصارت : حسيبة الداي ، وصرتُ أنا فيما بعد : " **مريم بنت الداي** " وليس مريم تعمُري ، فقد فاضَ اللقبُ حتى طالني.. ورغم السنوات الطويلة التي عاشتها جدتي في تلال السنديان ، تقولُ أمي ، فإن نبرَةَ صوتها ولهجتها اللبنانية المحبَّبة لم تتغيرا : فالسيارة : صَيَّارة ، والأقحوانة : قَمَرْ ، والقطة : بْسَيْني ..والجبل : جَبِلْ ..وهي لا تقول : عوافي ، بل عويفي ، وتنادي على الولد : تْعا كَ سِتِّي ..وعبْر أجيالٍ متعاقبة وُلدَ على يديها عشراتُ الأولاد والبنات ، وكانت إذا مَرَّتْ في الساحة بجَمْع من شباب تلال السنديان تقول لهم : " عويفي يا زُعْرانْ " فيردُّون : الله يعافيكي ، ويتقدمون الواحد تلو الآخر كي يبوسوا يدَها وتبُوْسَ خدودَهم مُردِّدَةً : تقبروني ! شوفتكم بتردّ الروح ! .. وفي كلِّ الولادات التي أشرفَتْ عليها لم يحدُثْ مكروهٌ للنساء الوالدات أو لأطفالهن ، وكان مجرد وجودها يبعثُ الطمأنينة في نفوس النساء وأزواجهن ، وعندما داهمَ الطَّلقُ إبنتها (أمِّي) إرتبكَتْ جدتي لأول مرَّة في حياتها المهنية ، وبدَتْ كَمَنْ يفقدُ السيطرةَ على كل شيء .. فمَاتَ حفيدُها (أخي الذي لم أرَه) بين يديها وسط ذهول

أمي والحاضرات . وانزوَتْ جدتي بعد ذلك في العليَّة الصغيرة القائمة فوق مضافة جدِّي ، وأخذتْ تذوي في صمت ، و لم يعُدْ يراها أحَد ثم ماتتْ من الحسْرة . وأبي الذي حزنَ لفقد ابنه البكر آله كثيراً موتُ حماته ، فقد كان يعتبرها أمَّهُ ، فضلاً عن كوْنِ جَدِّي معلمه الأول ، فمنه تَعَلَّمَ عمارة البيوت وتقصيب الحجارة في المقالع وحَفْر الآبار في الصخر لجَمْع مياه الأمطار .

- تأخَّرْنا على الشيخ نصر الدين

حَملَتْ صينيَّةَ القشّ ومَشَتْ أمامي ، نهضتُ وتبعتُها واجمةً .

4

في السفح الشمالي من تلال السنديان ، وعند المغيب ، يَقَعُ ظلُّ الصخرة الخاشعة فوق مَضْبعة صايل الجرهمي ، وهي غرفة مربعة بلا سَقف أو نوافذ ، بُنيَتْ جدرانُها من حجارة الدَّبش الأسود في مدماكين راسخين بارتفاع بَعيْرٍ واقف ، وللغرفة بابٌ حجري نُسَمّيْه في بلادنا : باب حَلَسْ : مستطيلٌ صخري مُصمَت ، ينفتحُ في ربْع دورة إلى الداخل فقط . وقد نَحَتَ صايلُ بروزين ناهدين من المستطيل في إتجاهين متعاكسين ، أعلى وأسفل ، فصارا محوراً يدورُ حولَهُ البابُ ، بعدَ أن نحتَ لكل منهما جُرْناً يتّسعُ لبرتقالة ، الأول في البلاطة السفلية تحت الباب ، والثاني في عتبة الباب العلوية . وجعَلَ ثقَلَ البابَ يَميْلُ تجاه الخارج ، فَلَوْ فتحْتَ البابَ إلى مَداه فإنه ينغلقُ وحْدَهُ ما أن ترفَعَ يدَكَ عنه . وكان يضَعُ حَمَلاً نافقاً في هذه المصيَدَة ، يربطه إلى باب الحَلَسْ بخيط ثخين مطلي بالقطران ، ثم يوازنُ موضعَ الطُّعم على الأرض ليحافظَ ، بثقله ، على الباب مفتوحاً .

ويرتكزُ إبتكارُهُ على فهم عميق لمزاج الضباع ، فهي لا تأكُلُ قبلَ أن تنقُلَ فريستَها إلى مكمن آمن ، وما أن تسحبُ الطعمَ وتهمَّ بالخروج حتى يرتخي الخيط ويتحرَّرَ البابُ في صمت ، ثم ينغلقُ في حياد ورُهبة ، فَيَدُبُّ الرعبُ في الوحش الذي يجدُ نفسَه قد حُوصرَ بغتةً ، ويدفَعُ الجدران مذعوراً ويرتعدُ وهو يبحثُ عن مَخرج ، وبالطبع ، يكفي شَدُّ الخيط قليلاً من الداخل كي ينفتحَ الباب في سلاسَةٍ ويُسْر ، ولكن فكرةً كهذه لا تخطرُ في بالِ ذِيْخْ .

" ويُشَقِّرُ " صايلُ على المضبعة في فجر اليوم التالي ، فإذا وجدَ الذيخَ محاصَراً عادَ إلى البيت وأيقَظَ ابنَهُ ملحم ، فيداوران الوحشَ ، ويُقرِّبُ صايل عصاً في رأسها مسمارٌ فولاذي فينقضُّ عليها الوحش ويعُضُّها ..وينغرز المسمار في فكِّه ، بعد ذلك يأخذ صايل لجامَ الحصان " ويُلَّم " الوحش ، وإذ يعودان إلى البيت يوقظُ ملحمُ أخاه الصغير :

- **غالب** ! ..غالب .. قومْ تفَرَّجْ يا صُوْصْ !

ويغضَبُ الصغير لأنهما لم يأخذانه معهما فيقول ملحم " .. الضبع يحبّ لحم الأولاد الصغار لأنه طري .. هم م م ! " ويعُضُّ أخاه مداعباً ، ويسألُ الصغيرُ : " مِينْ قال لَكْ ؟ ! " ويُجيب ملحم : الضبع ! ..ويشعُرُ غالبُ أن أخاه يسخَرُ منه فينهض من تحت اللحاف ويهجمُ على أخيه ، فيحملُهُ ملحم ويَضَعُهُ على ظهر الوحش الموثَق ، يكابرُ الصغير : " مِشْ خايف ! ..هِهْ " ويضربُ الوحشَ بكَفِّه الصغيرة على رأسه : تتدَخَّلُ أمُّهما : " هاتْ أخوكْ بَلا خَوَتْ ! " .

و لم يكن صايل يذهب لبيع صَيْده ، تاجرٌ من الشام كان يأتي إليه ، فيدفعُ ثمنَ الوحش وينقلُهُ على عَرَبَة ذات عَجَلات خشبية يجُرُّها بَغْل . و لم يكن صايل يَقبَلُ أقَلَّ من مئة قرش ثمناً لصيده ، يوم كان

ثمنُ الخاروف ثلاثة ريالات عمود ، والريال خمسة عشر قرشا . وأحيانا يأخذُ من التاجر كاويَ لحَام ، أو عقال ، أوتَمْراً عراقياً ، ويعرفُ صايل أن الربحَ الذي يُجنيه الشامي يفوقُ كثيراً الثمنَ الذي دَفَعَه ، فَهوَ يربطُ الوحشَ داخلَ خيمة في سوق ساروجة ، ويستأجرُ ولداً ليُنادي :

" تاعْ تفرَّجْ يا سَلامْ ..ما في مِثُّو بْ كُلّ الشام ..الضبع الكاسر بالخيمة .. اللّ شفتو بالمَنَامْ ! "

..ويحتشدُ الناسُ ويتدافعون ، فلا يدخلُ الواحدُ منهم حتى يدفعَ قرشين ، فيُلقي نظرةً على الوحش ويغادرُ الخيمةَ من الباب المقابل إلى ممر ضيِّق مغطى بالخَيْش يُفضي إلى زقاق فرعي .

وكان لصايل أرضٌ زراعية لا تتعدَّى مئة دونم ، موزعة في مساحات صغيرة حوْلَ تلال السنديان ولا يكادُ إنتاجُها يَفي بإحتياجات الأسرة المتزايدة ، فجزءٌ من القمح يدفعُه ضريبةً للحكومة التركية ، أو أنه يعملُ شهراً في أرض الأمير جدعان المعَمَّر ويقوم هذا بدفع الضريبة ، فالأمير مسؤولٌ عن تحصيل الخراج ، وعن الجزية التي يدفعُها النصارى عن أعناقهم .

غيْرَ أن لصايل موردَ رزق آخر ، فهو البيطار الأشهر في منطقة شهبا ، كما أن كلَّ محراث ونيْر في تلال السنديان مِنْ صُنعِه ، وهو يصنَع من البرميل موقدَ حَطب ومن الصفيحة الفارغة قسطلاً أو سِراجاً ، وما صَيْدُ الضباع إلا تسلية موسمية يختبرُ فيها أفكارَه ، وصَبْرَهُ . وقد تعلَّمَ ملحمُ بعضَ مهارات أبيه ورافقه كثيرا في جولاته البعيدة ، وسَاعدَهُ في الحصاد ودَرْس المحصول ، و لم يكن غالبُ ، وقتها ، قد بَلغَ العاشرة ، وكانا يتركانه في الدار ليساعدَ أمه فيَقلبُ أغراضَ البيت عاليها إلى سافلها ، وينُطُّ على السطوح ويُوعْوعُ في قسطل الموقد ، ثم يربط حَبلاً إلى مدحَلة السطح ويُدلي جسْمَهُ فوق باب البيت ويُغنِّي : " ما أحلى نومي عَ طيَّةْ زندها ! " .. ويُبَحُّ صوتُ أمِّه وهي تنادي عليه : " قعودْ وْلاا ! ..حاجي تنطّ مثل السعدان ! " ..وعندما يَمَلُّ الغناء يَنْزَلقُ إلى الأرض ويحمِلُ جَدْياً صغيراً ويَرميه في خابية الماء ..تركض أمه ، فيتعربشُ على حائط التنور ويمسك خشبةَ السقف البارزة من الحائط ، وفي لحظة يكون فوق السطوح ، يَغيبُ صوتُهُ ولا أحدَ يعرفُ أين يذهب .. يعوْدُ ومعه أفعىً أطول منه وقد عقَدَها على نفسها مرتين كما يُعقدُ الحبلُ .. يدخلُ البيت ويرمي الأفعى قدامَ أمِّه وهي تكنُسُ . وذات يوم كان ينطُّ مع الأولاد في الساحة ، فرأى ضيوفاً يحلُّون على الأمير جدعان المعمَّر ، لقد جاؤوا على الخيل ، وأكثر ما أعجبَ غالب الحصان الأسود الذي يسيرُ في المقدمة ، والنياشين المعلقة على بدْلة فارسِهِ . وفهمَ غالبُ أنهم رجالٌ مهمُّون ، فقدْ إرتدى الأميرُ عباءةً بُنيَّةً ونَزَلَ من قاعته ولاقاهُم حتى بوابة الدار ، وفوق البلاطة المرصودة فَرَدَ ذراعَيْه مُرحِّبا فبَدَا كخفاشٍ بُنِّي ما أضحَكَ غالب ، إلتَفَتَ إليه الحارسُ ذو الطربوش الأحمر وقال : " رُوْحْ فَلَدْ ! " فضحكَ غالب أكثر وقال :

" أنا فلد .. إنتَ حُرمَة ! "..نظرَ الحارسُ فوجدَ أسيادَهُ قد دخلوا الدار ، فتقدَّمَ خطوتين تجاه غالب ونَهَرَهُ : " أنا كلام روْح يعني روح ..مفهوم ؟ ! " ..ردَّ غالب وقد أمسكَ خصيتيه :

" أنا كلام إنتَ حُرمة يعني طُوبزْ .. مفهوم ؟! " .. وحرَّكَ جِذْعَهُ ويَدَهُ حركاتٍ نابيةً ، فانفجَرَ الأولادُ ضاحكين ، وهجمَ الحارسُ على غالب ، فهربَ راكضاً وهو يمدُّ لسانَه ويردد ُ :

" حرمة تُرْكي " ، رجعَ الحارس واتخذ مكانه بباب الدار ، وما هي إلا دقائق حتى تعربَشَ غالب على السطوح المجاورة ، وتسلَّلَ حتى قنطرة الدار ، فوق الحارس ، وبَالَ عليه قوساً فاتراً بلَوْنِ الشَّعير ، وسطَ صَيحات الأولاد وتصفيقهم . وفي المساء ، أفهمَهُ أخوه ملحم :

" هذا مندوب من الشام .. إنه يوزباشي تُرْكي " .. سكَتَ غالبُ قليلاً ثم قال :

- **بَدِّي حِصَان مِثْل حصانو !**
- إنشاء الله ، قال ملحم ضاحكاً
- كلام جَدّ هَهْ !
- طيب ، طيب ، مِنشُوف
- مِنْ غير ما تشوف ! .. بَدِّي حصان

ونادتْ أمهما : " تاعْ كُوْلْ إنتَ وأخوك " ..رَدَّ غالب : " ما بَدِّي آكُلْ ! بَدِّي حصان "

- هذا حصان عَ حسابك ، وأشارَ ملحمُ إلى الحوش
- هذا كديش ! ..أنا بدِّي حصان .. وخرجَ من الدار غاضباً .

أخذَ ملحم يُفكِّر ، وهو يأكل ، كيف يشتري حصاناً لأخيه ، فهو لا يُطيق حرمانَ أخيه مما يُبهجُهُ ، وعَذَّبَهُ ضيقُ أحوالهم ، فالقمح لا يكفي للمؤونة والبذار ، وفي الدار خمسُ عَنْزَات .. ومن الحماقة أن يسألَ أباه بيعَ إحداها ، لم يبقَ أمام ملحم إلا بيع أعز مقتنياته على قلبه : مسدسَه ذا البكَرة . في صبيحة اليوم التالي راح يبحث عن حصان يشتريه ، وفي المساء عاد منكسرا وحزيناً فالمسدس لايكفي لشراء حصان ، وغالب لا يكفُّ عن المطالبة . وخطَرَ له أن يُرمِّمَ فخاخَ صَيْد الضباع التي اهمَلَها أبوْهُ ورَماها فوقَ التِّبْن . في مساء اليوم التالي قال لغَالب :

" إحملْ معْوَلَكَ واتبعْني ! " ..تَبعَ غالب أخاه الذي نزل حَدْراً من الجهة الشرقية من التلال وبيَدِهِ كيْسٌ ورقي وفي كَتفه بارودةُ دَكّ صَنَعَها بنفسه . التَفَّ حول الحجارة التي تحيْطُ بقَبْر جُلمود ، وقَفَزَ من جَلٍّ إلى جَلّ حتى بدأت الأرضُ تنبسطُ امامَهُ وغالبُ يمشي وراءَهُ بخطوتين . ولاحَظَ ملحمُ أن الشمسَ توشكُ أن تغيْبَ عندما وصَلا رُقَّةَ البقَر على بُعْد ميلين من التلال . أعطى الكيسَ لأخيه وحملَ البارودةَ في يَدِهِ ، قفزَ من صخرة إلى صخرة في الرُّقَةِ المهجورة حتى وصلَ فوق المستنقع الصخري الصغير ، فَرَّتْ قَطَاةٌ وحمائمُ بَريَّة كانت تَجُوْلُ حَوْلَ الماء الشحيْح ، صَوَّبَ نحو القطاة

وضغطَ الزناد ، سقطتْ في مسافة قريبة ، وضعَ البارودةَ على الصخرة وقال لأخه : " دُكَّها " .. فتحَ غالبُ كيسَ الورق فراى صُوْصَ حَبَش نافقَ وتحتَه قُمقُمُ البارودة وقَنينَة الخردُق وعلبةُ الكبسولات. وضع شيئاً من البارود على كَفِّه وأفرَغَه في السَّبطانة ، ثم قطعَ ورقةً من الكيس وكَوَّرَها بإصبعيه ودَحْرَجَها وراء المسحوق ، سَحَبَ سيخَ البارودة ودَفَعَ حشوةَ الورق جيداً ثم أفرغَ عشرين حبَّة خُردُق في السبطانة وأتبَعَها بحشوة ورقيَّة جديدة وبعدَ أن دَقَّ الحشوةَ بالسيخ شَدَّ الدِّيْك تجاه الأخمص فتقَدَّمَ زنادُ البارودة قليلاً .. عندها وضعَ الكبسولةَ أمام إبرة الديك في حذَر . عادَ ملحم وأعطاه القطاة ، ثم أدارَ ظَهرَه للمستنقع فرأى الغيومَ في سماء اليرموك تُذهِّبُ نبيذَ الشمس. بَحَثَ بعينيه في الجهة الغربية التي تحيط بالمستنقع فوقعَ إختيارُه على أرضِ بُوْر مثل سجَّادة ، مُحَاطة بصخور متراصَّة ، سوداء ولاصفَة . رَكَشَ متراً مربَّعاً ونظفَ التربةَ من الحصى ، ثم عاد وقَلَبَ التربة الناعمة بيَدَيْه وانتقى حَصَاها كأنه يُغربلُه .. سَوَّى التربة ووضعَ الصوصَ النافقَ في مركز المربع . انتظرا في الرُّقة حتى خيَّمَ الظلام ، وعندما عادا صَامتين ، كان ملحمُ يفكِّرُ بفَرَح أنه قَدَّمَ لأخيه بعض التسلية واصطادَ له قطاة ،وأن غالبَ قد كَفَّ لساعاتٍ عن المطالبة بالحصان ،وفي اللحظة ذاتها تكلَّمَ غالبُ : " الحصان بيشوف بالليل ؟ ! " .. رَدَّ ملحم في حُنُو وفي أسىً : " الخيول مثلُنا " . صعدا التَّل من طريق صخرية تخترقُ كَرْمَ سليم العينداري ، وهو صخورٌ متراصَّة بَسَقَتْ فيها لوزتان ، قفزَ حيوانٌ واختفى بين الصخور . في قمة التل إقترحَ ملحم : " تعالَ نرتاح " .. جلسَا على صخرة " السِّتْ سَارَة " التي مَرَّتْ من هنا وما زالَ أثَرُ قَدَمها على وَجْه الصخرة : دَعْسَة الست سارة . تفرَّجَ غالب على القطاة في ضوء القمر ، ثم تذكَّرَ الصوص النافق.. ففهمَ أن أخاه قد جلبَ الصوص من قبيل الإحتياط .. فقدْ لا يجدُ ما يصطاده وقد يخطىءُ التسديد فلا يجدُ طُعماً ، شعَرَ غالبُ بالإعتزاز بأخيه وهو يجلس بجانبه ، نظرَ إلى القمر وقال : " مثلَ جذْع الحَوْر ! " .. فقال ملحمُ : " يعني مثل حَجَر الشبَّة ".. فقال غالب : " **سُكَّرْ نَبَاتْ** " وسَادَ صمتٌ إلى أن قال غالب: " صحيح إنك بتحبّ فدوى بنت الأمير جدعان ؟ "

- كلّ شباب البَلَدْ يحبُّونها
- بَسْ فَدْوى بتحبَّك إنت !
- يا غالب هذه اميرة بنت أمير
- وشوْ يَعني ؟ مِثلْ هَالنسوان !
- لا لا مش مثلهم ! _ قال ملحم في حماسة
- شِفْتْ ؟ !

وأحَسَّ ملحم أن أخاه استَدْرَجَه فقال يُرقِّعُ الموقف :

" قّصْدي وين حالنا من حالهم ..شايف هالأرض ، وأشار بيده إلى السهول ، كلُّها للأمير جدعان المعمَّر ..وكُلُّ الناس مرابعين عنده . وبعد صمت قال غالب :

- الأولاد يقولون : كل ما صار عُرْس عند المسيحيين ، يدخل جدعان عَ العروس و..
- بَلا هذه السيرة !!
- طيِّبْ ليش العريس ما يقوِّص جدعان ؟!
- كل الحكومة وراء الأمير جدعان
- صحيح أصْلُهُ من لبنان ؟
- كُل أهالي تلال السنديان أصلُهُم من لبنان .. مِشْ بَسّ الامير
- شو جابهم لَ هُوْنْ ؟
- الحروب ! . الناسُ هنا مخزوميُّون أصلهم الحجاز ، إستُشهدَ الأمير **الحارث المخزومي** على أبواب دمشق ..قَرَّرَ الخليفة : " حَوران لذريَّة الحارث " ..حكموها مئات السنين وإتخذوا من مدينة **شهبا** ، اللي تراها أمامَك، عاصمةً لهم .. لذلك إسمُهُم : شهابيُّون
- وبعدين ؟
- صار قحط ومجاعات ، هاجَروا عَ وادي التيم ، قتلوا ألف جندي صليبي وأحذوا رؤوسهم **لنور الدين زنكي** ..فأعطاهم جبال لبنان الشرقية ، سكنُوها وعملوا حاصبيَّا عاصمة .

صمتَ ملحمُ قليلاً ثم قال : المعنيُّون إنبَسَطوا بقُدُوْم الشهابيين ، لأن الشهابيين والجرهمي والمعمر والمعنيِّين من أصل قيسي ، أما تنوخ وعلم الدين وحَرفوش ورشماني فَهُمْ يَمَنيُّون .. وكان بينهم مذابح .. قُوْمْ ..تأخَّرْنا .. ثم قال وهو ينهض : آخر مذبحة في عين دارة ..من مئة سنة ، حيدر الشهابي أبادَ اليمنييِّن ..

- إنتَ كيف عرفت ؟!
- رجال كبار ، وأشخاص عندهم كُتُب حَكُوا لي .صحيح ..نسيتْ أخبرَكْ : لما أروح عَ لبنان أزور أختَك عفرا .. رَحْ آخذك معي
- قُوْلْ وحياةْ الله ! إحْلفْ !
- بإذن الله

تَمْتَمَ غالب : " دَخيْلْ إسمْ الله " ..وكانا قد وصلا باب الدار . وقف غالب على العَتَبَة الحجرية تحت القنطرة وقال : " ملحم " التفتَ ملحم إلى أخيه :

- خير ؟
- شِفتكُمْ بالليل .. إنت وفَدوى !

- إنتَ لا شفت ولا سمعت ! .

في صبيحة اليوم التالي جاء سائسُ الخيل من حامية شهبا ليَحْذي الخيول ، فبقي الاولادُ مع أبيهم، وعند الضحى ، إقتَادَ السائسُ الخيول الخمسة و لم يدفع حتى ثمن المسامير أوالحدوات ، وضعَ ملحمُ يَدَهُ على مسدسه فزجَرَهُ أبوه بنظرة ، وامتعَضَ غالبُ أشدَّ الإمتعاض . عند العَصر قال ملحم لأخيه " لازم نروح عَ الرُّقَة...نشوف الطُّعْمْ " ..لكن غالب كان غاضباً وواجماً ، وعندما كرر ملحم قولَه ، ردَّ غاضباً : " ما بَدِّي روح " . أخذَ ملحم الفخَّ وذهَبَ وحْدَه . لم يجدْ الطعمَ التجريبيَّ ، قرفصَ قُرْبَ المربَّع وتأمَّلَ التربةَ الناعمةَ .. إنها آثارُ قوائم ، ربما ثعلبٌ .. ورغم ذلكَ نَصَبَ الفخ الفولاذي وربَطَهُ بجنْزِيْر إلى وَتَد دَقَّهُ عميقاً في الأرض ووضعَ طُعْماً : كتلة مكورة من العجين المخلوط بشحم حيواني .

في صبيحة اليوم التالي عادَ إلى الرُّقة وغالب معه ، ومُذْ قفزَ فوق أول صخرة سمعَ حَرَكةً فقال لغالب : " انتبه ! ..إمسك البارودة جيدا ، لا تقوِّص إلا لتحمي نفسكَ ، مفهوم ؟ " هَزَّ غالب رأسَه .

تقدَّمَ ملحم بالعَصَا الطويلة لائذاً بالصخور ، ثم رفعَ رأسَه تجاه الفَخ : ثمة ذئبٌ عالقٌ ، تفحَّصَ الوضعَ فلاحظَ أن الوَتَدَ مازال مغروزاً ، وأن الفخَّ قد أمسكَ بالقائمةَ الأمامية للذئب ، بإمكان ملحم ، إذن ، أن يتقدمَ . دارَ إلى أقرب صخرة إلى الفخ ثم ، بَغتةً ، قفزَ نحو الذئب صارخاً بقوة وضربَه في رأسه ، إنبطحَ الذئبُ بلا حراك وقد لوَّثَ الأرضَ بُرازُهُ ، داسَ ملحمُ على رقبته وربطَ غالبُ قوائمَ الذئب بحبْل ثخين . فكَّ ملحمٌ اللجامَ ثم أدخلَ العارضةَ الفولاذية بين فَكَّي الذئب . وفي الدار قال غالب لأبيه : " إصطدنا ذئباً بلَوْن الرغيف المُحَمَّصْ ! " .

لم يدفعْ الشامي سوى ثمانين قرشاً ثمناً للذئب ، فقدْ تأخَّرَ حتى مَرَّ بتلال السنديان ، وكان الذئبُ قد ذوى .. وشَعَرَ ملحمُ أنه يُضيِّعُ وقته ، كما ان الحَصَادَ على الأبواب فقرَّرَ زيارةَ أخته في لبنان. أخبَرَ أباه فأعطاه قروشاً لشراء الحلاوة والجوز من الشام ، وحَاكَتْ أمُّ ملحم شالاً لابنتها ولفاعاً لصِهرها ، و لم تنسَ الحجابَ وكَفَّ الخَرَز الأزرق لحَفيْد مُنتَظر . وفي يوم أحَد ، وقَبْلَ طلوع الفجر أيقظَ ملحمُ أخاه غالبَ ، فَهَبَّ فرحاً وملأ قربَةَ الماء ، تفقدتْ الأمُّ الأغراضَ وهي تضعُ الزوادَةَ في عَيْن الخُرْج وباسَتْ غالب وأوْصَتهُ : " لا تُلبِّك أختَكَ عَفرا " . قادَ الكديشَ وخرجَ من الدار تجاه شمال التلال ، ثم إنحَدَرَ في الدَّرْب النازلة وملحم وراءَهُ ، ألقى نظرةً على الصخرة الخاشعة ، والمضبَعَة ، ثم انعَطَفَ إلى بئر هُوْرا بينما تابَعَ ملحمُ سَيْرَهُ راجلاً نحو السَّهل . سقى الكديْش وهو يفكر بأشجار البُطْم التي غرزتْ جذورَها بالصخور العالية عند كَتف البئر .. وإذْ صَارَ في السهل ركبَ الكديشَ وحَثَّ السير ليلحقَ بأخيه ، مشى ملحمُ حتى بيار القطا .. ثم ركبَ وأردفَ غالبَ خَلفَهُ . لم يتوقفا حتى ظَهَرَ لهما جبلُ قاسيُّون مُلفَّعاً بالغيم ، قال ملحم : " قُدَّامَنا واحة ، هذا على يسارك تَلُّ سُكَيْن ،

والرُّجْمُ اللِّي عن اليمين قبرُ يُنبوع .. لا تنسَ ..يجب أن تعرفَ ، دائماً ، أين تقف ، وكيف تصِل إلى الواحات .. في الليل وفي النهار.. فهمت ؟ " ثم طلبَ إليه أن يُحَدِّدَ نقاطَ عَلَّام تُرشدُهُ ، وأن يحفظَ معالمَ الأمكنة . وصَلا الواحة ، فأنزَلَ ملحم الخُرْجَ عن الكديش وقادَهُ حتى الماء .. ثم تركهُ يَرْعَى . جَلسا في شمس الصباح وأكلا ، إستَلقى ملحم على ظهره : " إحْذَرْ الذئاب " ووضعَ المسدسَ قدامَ غالب الذي أسنَدَ ظهرَهُ إلى جذع شجرة وراح يتأمل الماءَ الصافي . إنقضى قليل من الوقت عندما لَمَحَ على بُعد ميْلٍ شرقَ الواحَة خيَّالاً مسرعاً تجاه الجنوب ، وبعد فترة وجيزة ظهرتْ كوكبةٌ من الخيَّالة ، إنها تتجهُ إلى الواحة ، نَبَّهَ أخاه . رفعَ ملحمُ رأسَهُ : " دورية تُركيَّة ..أخفِ المسدَّس والعَبْ بالطين كأنكَ لا تراهم ! " ..وصَلَ ثلاثةُ فرسان بلباس الجنديَّة وتكلمَ رئيسُهم بالعربية :

- ويْن رايحين ؟
- عابرين سَبيل
- معكُم سِلاحْ ،
- لا !
- فتِّشوهم !

ولَّما لم يجدوا شيئاً سألَ كبيرُهم : " شفت حَدا مَرَقْ من هوْنْ ؟ " ردَّ ملحم : لا . سقوا خيولَهم وانصَرَفوا . وقبلَ أن ينطلقا نظرَ ملحمُ في عيني غالب :

" إفهم كلَّ كلمة أقولُها .. هذا مقلاع لُفَّهُ على خصْرك ، أمَّا سلاحك فهو هنا " وأخرجَ خنجراً نحيفاً من تحت شريحة الجلد التي في رَسَن الكديش خَلْفَ أذنه مباشرةً " لا تَسْحَبْ الخنجر عَ الطالعة والنازلة ! .. إذا سَحَبتَهُ لازم تضرب .. وإذا ضربتَ إضربْ بلا رحمة ..إضربْ في ضراوة فهمت ؟ " قال غالب : فهمت . " **إمسك الخنجر** ! " .. لاحظَ غالبُ أن النصْلَ معقوفٌ مثلَ قوْس فارتبكَ قليلاً وقَلَبَ الخنجرَ في يَدِه . أفهمَهُ ملحم أن الطعنَ بالخنجر يختلفُ عن الطعن بالسكين ، وأن عليه أن يقفَ بحيث يكوْنُ الخصمُ عن يمينه ، ثم يلتفُّ قليلاً إلى اليَسار موهماً خصمَهُ بعدم الإكتراث ، أو كأنه يستديْر .. ثم يخطفُ الخنجرَ مباغتاً وضارباً بلا تردد أو شفقة.. نفَّذَ ملحم الحركةَ أمامَه مَرَّتين وأمَرَهُ : " جَرِّبْ ! " . طعنَ غالبُ الهواء فتدَخَّلَ ملحم :

" أنتَ تَنغَز ولا تطعَن ! .. لا تُحَرِكْ يدَكَ من الكوع ، إن قوةَ الضربة في حركة الكتف حين تكوْنُ الذراع كلُّها مشدودَة " .. هيا أعِدْ ... .

وإذْ خرجا من الشام إتجها إلى سهل البقاع عبر الأودية والتلال ، شَعَرَ غالبُ أن الهواءَ تَغَيَّرَ قليلاً وصار شفيفاً وأنيساً وأن الأرضَ أكثرُ اخضراراً ، وعندما بَانَ جبلُ الباروك إغتبطَ غالبُ ، وأهجَتْهُ

رائحةُ الصُّنوبر وغاباتُ السنديان في الجروف ، وما أن رأى أحدَ مَصَبَّات نبع الباروك حتى أدركَ أنه على تخوم الجنة وسألَ ملحمَ أن يرتاحا قليلاً ، نزلَ ملحم عند رغبة أخيه .

حين نهضا قالَ لغالب : " سنتجه إلى معاصر الشوف قاصدين جبل بُطمة ومنه إلى المختارة " . وفي عَصْر ذلك اليوم وصَلا إلى بعقلين ، إنعطفَ ملحمُ في الزقاق الرئيسي .. ثم إلى الساحة ، ودخلَ في زقاق أعرض يُفضي إلى كَرْمٍ واسع تتوسَّطُهُ دارٌ مشيدةٌ بالحجر الأبيض ، رأتهما عفراءُ يدخلان الدارَ فصَاحَتْ : " يا حَيَّا الله يا خَيِّي " وركضتْ إلى ملحم وحَضَنَتْهُ ، ثم إلى غالب وضَمَّتْه إلى صدرها وقبَّلتْه : " تقبرْ قلبي صرْتَ شابّ ! " ... تفضَّلوا .. تفضلوا .. وأشارتْ إلى المضافَة ، ثم أرسلَتْ ولداً يُخبرُ زوجَها الذي كان خارج الدار . فرحَ غالبُ عندما أخبرَتْهُ أختُهُ أنه أصبحَ خَالاً ..نهضَ وقبَّلَها ثم قام ملحم وعانقَ عفرا وسألَها : " عريس أَمْ عروس ؟ " قالت : " عريس ..أسميناهُ فؤاد " رَدَّ ملحم : يرْبى فْ عزكم . ضحكتْ عفرا وقالت : عقبال عندَكْ ..يالله شِدَّ همّتكْ ! . رَحَّبَ إسماعيلُ بأخوَة زوجته ، ذبحَ خاروفاً ودعا جيرانَه إلى السهرة .

في صبيحة اليوم التالي أفاقَ غالبُ على قبلة عفرا فنهضَ وعانقَها ، لقد غفا جيداً واستعادَ جسدُهُ كلَّ حيويته ونشاطه ، أخبرتْهُ أن ملحم وإسماعيل يشربان القهوة عند الجيران ، حملَ فؤاد وجَالَ به في الكَرْم ثم أخذَهُ ليتفرَّجَ على الكديْش .. نظرَ الطفلُ مندهشاً ثم لبطَ برجليْه ولوَّحَ بيده : " تاا" ونادتْ عفرا : " تاغْ يا روحي " وصعدتْ على الدَّرَج الحجري العريض تحملُ صينيَّةَ قَشّ ، وعلى سطح الدار جَلسا يأكلان في نداوة الصباح .. إبتهجَ غالب وقد إنكشَفَت أمامه غابات الصنوبر وصَمْتُ النَّدَى على التلال البعيدة ، ورأى بلدةً يحضنُها الغيمُ فأشارَ بيده وسألَ :

ما اسمُ هذه البلدَة ؟ ، أجابَتْ : دَيْر القمَر . سَحَرَهُ الاسمُ وهو يقلبُهُ في فكرِهِ .. وشعَرَ أنه قريبٌ من قلبه . أشارتْ عفرا إلى الغرب الجنوبي وقالت : " وهذي بيت الدين " نظرَ غالب حيث أشارتْ أختُهُ : ثمة بيوتٌ تسلَّقتْ التلال الخضراء ، وكُروْمٌ كالأدراج الواسعة وبناءٌ يتوسَّطُ البلدة.. وأوضحَتْ عفرا : " قصر الأمير " سألَها : " أي أمير ؟ " .. البُراق شهابْ ، قالت .

فكَّرَ قليلاً وتذكَّرَ ما قاله ملحم فسألَ على الفور :

" ويْنْ عين دارة؟ " نظرتْ عفرا في وجْه أخيها فشعرَتْ أنه لا يسألُ في سذاجة ، أفهمتْهُ أن الناظرَ من حيث يجلسان لا يرى عين دارة فهي وراء الجبل ، ثم قالت بعد صمت :

- كان لنا أرض في عين دارة !
- أعرفْ !!

تأمَّلَتْ وجهَه وهو ينظرُ ساهماً إلى الأفق البعيد ، تفحَّصَتْ عينيه السوداوين وشعرَهُ الناعم الطويل .. وأحَسَّ هو أنها تنظرُ إليه ، التَقَتْ عيونُهما فابتسَمَ لها في حنان لكنها ظلَّتْ تتأمَّلُه فشعرَ أنها تُنقِّبُ في

ثنايا هواجسه ، وضعَ كَفَّهُ الصغيرةَ على خَدِّها ثم داعَبَ ذقنَها : " سُفرة دايمَة " ونهض عن الزّاد ونزَلَ يتمَشَّى . قادتْهُ قدماهُ إلى كتف الوادي الذي يَفْصلُ أراضي بعقلين عن أراضي دير القمر ، نزل إلى السواقي الفضيَّة في بَطن الوادي فلم يعُدْ يرى البلدةَ ، تسلَّقَ كتفَ الوادي المقابل فأنعشَتْهُ رائحةُ الصُّنوبر والنسمةُ الصباحية البكْر ، تقدَّمَ في الغابة مفتوناً بصَمتِها النديّ وهدوئها الآسر .. وسمعَ ضحكاً وأطرافَ حديث ، أرادَ أن يتأكدَ أن أذنَه لم تخدعْهُ ..لمحَ أشخاصاً يجلسون على الأرض ويتحدَّثون ويأكلون .. غيَّرَ طريقَهُ وابتعد .. رأى جرفاً صخرياً مثلَ قَوْس ..سارَ محاذياً الصخورَ ، خطرَ له ان ينظرَ إلى بعقلين من حيث وصلَ ، التفتَ إلى اليسار فرأى بيوتَ بعقلين البيضاء .. حاولَ أن يُميِّزَ بيتَ عفرا فلم يستطعْ .. جلسَ على العُشب وراحَ يتأملُ في هدوء كي لا تفوتُهُ لحظة من العذوبة المُشْرقة ، رأى عند قدميه زنبقةً بَريَّة إنها بيضاءُ وصغيرة فجعلُ ينظرُ إليها مسحوراً ، وانتبَهَ أن عن يمينه أيضاً زنبقتين ، قام إليهما جَذِلاً فرأى زنابقَ جديدة .. وكلما تقدم إزدادَتْ الأرضُ بهاءً .. إنه مَرْجُ زنابق ... جثا على ركبتيه وجعلَ يتأملُ الأوراقَ الشفيفةَ وهي ترعشُ للنسمة في خَفَر .. شعرَ أنها تبسمُ ..تلجلَجَتْ في مهجته كلمةٌ .. إنها الألق .. إشراقةُ ماء .. عذوبةٌ آسرَة .. ثم نَطَقَ إسمَها : نورا !

فرأى ظِلَّها على الأرض مُرصَّعاً بالزنابق .

5

فوقَ البلاطة المرصودة ، ونحن عائدتين إلى الدار ، داهمَتْني كآبةٌ أذبَلتْ روحي وحاصَرَتْ قلبي فقلتُ لزاد الخير : " نعسانة .. أريدُ أن أنامْ ! " . دخلتُ الليوانَ وأغلقتُ البابَ ورائي . تذكَّرتُ أنني لستُ حُرَّةً إلى درجة أنني أستطيعُ أن أُغلقَ بابي وأستريحَ على هواي فأنا في آخر الأمر مجردُ واحدة ممن يقُمْنَ بأعمال الخدمة في هذه الدار ، وإنْ كان لي شيءٌ من الحرية في عَهْد الأمير طراد فإن الحُكْمَ اليوم قد تغيَّر .. " رضينا بالهَمّ .. والهم ما رضي فينا ! " أدركتُ أني لم أكُنْ أفهمُ عبارةَ أمِّي ، يا إلهي كم أنا وحيدة ؟! ماذا أفعَلُ بهذا الوقت الساكن ؟ أين أفرُّ من وحشتي ؟ .. لا رغبة لي في الطعام ، لا رغبة لي في الذهاب ، لا رغبة لي في الرجال ، لا رغبة لي في النوم.. قلبي يخفق ... إنني أختنقُ .. أين الهواء ؟ .. ركضتُ إلى الباب وفَتَحْتُهُ .. رآني رجلٌ من حَرَس الأمير صقر .. كأنه كان ينظرُ إلى بابي .. كأنه توقَّعَ أن أفتحَ ، إنه واقفٌ فوق ، أمام قاعة الأمير ..إستدارَ نحو الغرب ، صرتُ أنا عن يَمِيْنه ، لم يعُدْ ينظرُ إلي ، إنها لباقةٌ من رجلٍ مهنتُهُ القسوةُ ، وهذه اللباقة أربَكَتني ، فَلَوْ أنه نظرَ إليَّ بعيني ذئب لكان أسهلَ ، أسهل لأنه أوضحُ ، أما اللباقةُ فتُشعرُني أنني مدينةٌ .. وتُطالبُني بالإرتقاء إلى حيث صاحبها ، وهذا عبءٌ نفسيٌّ لا يقِلُّ قسوةً !.. وتنبَّهْتُ ، وأنا أبتعدُ عن الباب ، أن فكريَ قد شردَ قليلاً ونأى بي عن عزلتي ، فَعَجِبْتُ للنفْسِ الإنسانية وزخمِها الذي يَمُوْرُ ويتماوجُ دافعاً أشرعةَ الفكر إلى آفاق مغايرة ، ومُبَدِّداً أواليات اليأس ، ومداميك القنوط الذي يتَدَرَّجُ في التلاشي ثم الرفيف الغامض من على صفحة النفس .. وفكَّرْتُ : " كذلك مع الفَرَح .. الفيزياء ذاتها تحدُثُ لنا ! " فَهَبَّتْ على روحي مَوْجَةُ كآبةٍ جديدة ! لكنها أقَلّ ضراوةً .. آآآ ..فهمتُ : اليأسُ لا ينهزمُ بسهولة .. إنه يُقاومُ .. ثمة شاعرٌ قال : " الأفراحُ مُجنَّحةٌ " .. مَنْ هو يا مريمُ ؟ .. تذكرتُ : قرأتُ ذلك في كتابٍ ترجمَهُ إبراهيمُ الرشماني عن الفرنسية ، الأصَح : كنتُ أقرأ الكتابَ للشيخ نصر الدين ، فبعدَ " مواقف النفري " بيومين طلبَ الشيخُ أن أقرأ له أشعاراً ، وكنتُ سعيدةً كأنني في فسحة راحة بعد العناء والحَرَج اللذان سبَّبتهُما المواقفُ لي ، ورغم أنني حفظتُ منها جُملتَيْن : " كلما اتَّسَعَتْ الرؤية ضاقتْ العبارة " .. وأيضاً : " الحَرْفُ حجاب " فإنني لم أفهمْ مقاصدَ الكتاب ومراميه ، وكثيراً ما افترَضْتُ تشكيلاً خاطئاً للكلمات فيختلطُ المعنى ويضيع السِّياق ..فيهمسُ الشيخُ : "تَمَهَّلي " .. أتوقَّفُ عن القراءة فأرى الشيخَ يفكرُ في صمْت مطبق ، أنتظرُ ساكنةً دون أي نأمَة قد تُزعجُهُ .. وتمرُّ دقائق والشيخ غائبٌ في أشواقه إلى أن يقولَ : " إذا لم تَتْعَبي نعوْدُ إلى : إستوقفني في العز وقال .. " ولاحظتُ أن الأمورَ قد أشكَلَتْ على الشيخ أيضاً ، فقد سألَ مراراً : " كم رقمُ هذه الصفحة ؟ " وهذا يعني عودته إليها لاحقاً ، فقد أعطاني ذات يوم " طبائع الاستبداد " وقال : " من فضلِكِ

.. مئة وثلاثون " قرأتُ له صفحتين فقال : " شكراً .. نذهبُ إلى ثمانين " كان واضحاً أن أحداً قد قرأ له الطبائع ولا شكَّ أن الشيخَ استوقفَه في بعض الصفحات وطلبَ إليه ان يُعيْدَ من أول الصفحة ثم سألَهُ مثلما يسألني الآنَ : " كم رقمُ هذه الصفحة ؟ " .

بدأتُ أقرأ للشيخ مُذْ كنتُ في العاشرة ، وكان هَمِّي ، حينها ، أن أبدو ذكية في نظر الشيخ ، وهكذا لم أكن أعي ما أقرأُ ، لكن شيئاً فشيئاً ومع مرور الوقت ، صِرْتُ أفكِّرُ بالكلمات التي أنطقُ ، ثم بدأتُ أنتبهُ أكثرَ لما يقولُ الكتاب ، وعندما أتمكَّنُ من إكتشاف الترابط أو إلتقاط فكرة أبتهجُ وأشعرُ أن إشراقةً إنسَرَبَتْ وأضاءَتْ عقلي ، أغتبطُ وانا أفكرُ أنني أعرفُ أشياءَ لا تعرفُها يُسرا بنت الأمير طراد المعمَّر !.. فقدْ جاؤوا لها بمعلم من الشام مذ كانت في الثامنة ، وهي تكبرني بسنتين ، وعندما نلعبُ في المساء تأخذُ هي دَوْرَ المعلم ، فَتُجْلسُني على كرسي في غرفتها وتقفُ أمامي وتعلمني الحروفَ ، أسألُها عن الجن وكيف يتنفسون تحت الأرض .. ومت ينهضُ الموتى من القبور كي أرى أبي .. وكانت تُجيبُ عن أسئلتي في وقار ، وأحياناً تصمتُ وتقولُ :

" سُموّ الأميرة ! لا تضَعي أصبعَكِ في أنفكِ ! " وبالطبع ، لم أكن أنا أفعلُ ذلك ! .. وكانت اللعبةُ تروقني وتُفرحُني ، و لم أكن أتخيلَ نفسي انني الاميرة يسرا .. بل أختها الكبرى غزالة التي نعشقُها جميعاً في تلال السنديان ، فاتصوَّرُ السفينةَ التي تحملُني من بيروت إلى باريس .. وكيف يعشقُني الكبير والصغير . ومِنْ لُعبة يُسْرا ومباركة الشيخ نصر الدين تعلمتُ القراءةَ ، وامَّا غزالةُ فأميرة قلبي قبل أن تكوْنَ أستاذتي ، وتذكَّرْتُ أنني أخذتُ صورتَها التي رسَمَها فرنسيٌّ ووضعتُها بين ضلفتي كتاب إبراهيم الرشماني .. " يا إلهي ! كيف نَسيْتُ ؟ .. لقد تغيَّرَ الحُكمُ .. وقد يُفتِّشونَ .. عليَّ أن أخفي الصورةَ والكتابَ .." وقفزتُ كالمجنونة .. فتَحْتُ صندوق أمي المرصَّع بالصدف الأبيض وأخذتُ الكتابَ ، قرأتُ على الغلاف : " ذئاب القمح " ..فتحتُ الكتاب فبَسَمَتْ غزالةُ ، تأملتُ عينيها الحبيبتين ووجهها الذي يفيضُ رقةً وتَحْناناً ، ضَمَمْتُ الصورةَ إلى قلبي وبكيتُ . أغلقتُ الصندوقَ وجلَسْتُ أتصفَّحُ الكتاب في حَذَر :

" ... بعدَ أن كَبَّلَ الأتراكُ فخرَ الدين المعني الثاني بالسلاسل واقتادوهُ سيْراً على الأقدام من بيت الدين إلى القسطنطينيَّة أصبَحَتْ القيسيَّةُ تحت قيادة الشهابيين . وعندما عَيَّنَ الأتراكُ علي علم الدين وهو يمنيُّ الأصل أميراً على لبنان تَمَرَّدَ الشهابيون وقاتلوا الاتراكَ واليمنيَّة وسحقوهم في عين دارا .. وكان بشير الثاني الشهابي أميراً على لبنان يوم كان الجزَّارُ واليَ عكا ، وبعدَ موت الجزار ضَمَّ بشير الشهابي إمارةَ جبيل ثم وادي البقاع الذي يُمَوِّنُ لبنان بالقمح ، واستولى على أراضي الإقطاعيين من آل المعَمَّر والجُرْهمي والحمدان في الجنوب وأحَلَّ فيها الموارنةَ الشماليين ، وقد ساندَهُ محمد علي باشا ولي مصر الذي أعلنَ العصيانَ السَّافرَ على الباب العالي ... وقد كان بشيرُ مُسلماً بصورة رسميَّة

ليضمَنَ دعمَ محمد علي ، وأدَّى الطقوسَ المسيحيَّةَ في كنيسة قصره السريَّة في بيت الدين **وعملَ كثيراً لإفشَاء هذا السِّر** ! ليكسَبَ نفوذَ رجال الدين الموارنة لدى فرنسا .. وكان يحتفظُ في قَصْره بنسخة من كتاب النقط والدواير ، فإذا جاءَهُ الدروزُ بَاسَ الكتابَ ووضعَهُ على رأسه مؤكداً : " أنا في الظاهر من المسيحيين وفي الباطن من **الموحِّدين** .. " . وسمعتُ وقْعَ أقدام في أرض الدار فأخفيْتُ الكتابَ تحت مخدَّتي .

6

كان لرائحة لبنان ووجْهِ نورا أثَران بالغان في نفْس غالب كأنما أطلَّ على الدنيا فجأةً من شُرفة عالية ، فصَارَتْ روحه أكثرَ عذوبةً وذهنه أشدَّ توقُّداً . خافَتْ أمُّهُ ، فقدْ صَارَ يسمعُ كلامَها ، ويساعدُها ، وكّفَّ عن إشعال القطط والعواء في عنبر القمح .. وبَدَا كأنما كبرَ فجأةً .

وذات صباح أيقظَهُ ملحمُ ليرافقه إلى البريَّة فقد نفَذَ الشِّيْحُ من التُّور . إجتازا رُقَّةَ البقر تجاه أرض الحَمَاد حتى وصلا أولَ الوَعْر في مَسيْل السَّرْج . ربطَ ملحمُ الحمارَ وأخذَ المعولَ وراح يقتلعُ الشيحَ من شروشه ، فَرَدَ غالبُ الزكيبةَ على الأرض ورَصَّ الشيحَ المقلوع فوق الأمراس ، ثم التقطَ جذوعَ الجزل الجافة ووضَعَها في خُرْج الكتَّان . في طريق العودة عَرَّجَ ملحمُ على بيوت الشَّعْر التي نَصَبَها البدْوُ على كتف المسيل ، وإذْ إقتربا من البيوت نَبَحَتْ عليهم كلابٌ ، ولاقاهم رجُلٌ : " هلا بالرَّبعْ .. حَيَّاكمْ الله " وسَلَّمَ عل ملحم كأنه يعرفُهُ ، ثم خاطبَ غالبَ :

" يا مَرْحَبْ بالنَّشْمي " . أنزلا زكيبة الشيح وربطَ غالبُ الحمارَ بوَتَد .. ودخلا البيت .

صَبَّ البدويُّ فنجان القهوة الأول لملحم ، والثاني لغالب وهما جالسان فوق بساطٍ من وَبْر الماعز وأمامهما نُقرةُ النار وقدْ هدأَ وهجُها . هَمَّ غالبُ برفْع الفنجان إلى شفتيه لكنه لاحظَ أن ملحمَ لم يتناولْ فنجانَه بعدُ ، فَعَدَلَ عن فكرته وانتظرَ ، قال ملحم لصاحب البيت : " قاصدينَكْ ! "

رَدَّ البدويُّ : " عَ الموجُودْ " عندها تناولَ ملحمُ قهوتَهُ ، وفعَلَ غالبُ مثله . قال ملحم :

" بَدِّي المُهْرْ لَ هالخَيَّال " وأشارَ إلى غالب الذي أضاءتْ عيناهُ وخفَقَ قلبُه . ردَّ البدوي :

" عَ حْسابكم المُهْر وصاحب المهر ! ... بَسّ الخَيَّال يشُوْفَهْ " .. ونهض غالبُ طافحاً بالغبطة والتوقُّع ، بحثَ بعَيْنيه عن المُهر الذي يتحدثان عنه فلم يَرَه ، ثمة فَرَسٌ حمراء بَانَ رأسُها اللطيف من فوق حائط الزريبة التي يسمِّيْها البدو : الرَّسْم ويبنونها من حجارة الدَّبش على شكل دائري . وما ان صار غالب عند بابها حتى حَبَسَ أنفاسَهُ من البهجة ، فثمة في الرسم مُهْرٌ صغير أسودُ يلعبُ ويَدُوْرُ حول أمِّه ، رفع البدوي خشبتين عن باب الرسم ودخلَ غالب إلى المُهْر ووقفَ أمامَهُ .. إقتربَ المهرُ على مهَلٍ .. مَدَّ عُنُقَهُ وأخذَ يَشُمُّ غالبَ ويُمَرِّرُ شفتيْه على يَدِهِ ، حضنَ غالبُ رأسَ المهر برهةً ، ثم نظرَ في عينيه صامتاً ، بعد ذلك مسحَ بكفِّه على جبهة المهر ..تأمَّلَ عينيه المضيئتين ثم طبعَ قبلةً على جبهته . وأوضحَ البدوي : " .. هذا المهر إبن الأبجر إلْ عند شيخ عْنزي .. وأخوه الرَّهوان عند الدنادشة في تل كَلَخ ..وأخوه من أمه عند اليوزباشي حكمت بالشام .. والعَنُود اللّي تشوفها تَرَى بنت الحصان إلْ كان يشبا المهارى بْ كل نجد : عْرارْ إبن العَرَّاد .. ها ..إيشْ رأيك ؟ ! " حضنَ غالبُ المهر ورَبَتَ على رقبته في خفَّة ، وعندما سأله ملحمُ : أعجَبَكْ ؟! هَزَّ رأسَهُ أن : نعم ، قال

البدوي على الفور : " إجاكْ ! ..شرط تقوْل إسْمَهْ ! " شعَرَ غالب انه سيطير واوشكَ أن يبكي فرَحَاً .. تأملَ المهرَ وقوائمَهُ الرشيقة وبُوْزَهُ الدقيق وقال : " **فَهْدْ الليل ! .. اسمُهُ فهد الليل !** " .

"عاشت الأسامي وإلْ قالْها ! بعون الله فهد الليل هديَّة مني لَكْ ! " .. أجابَ ملحم : " والله كَفُوْ .. ما تْقَصِّرْ يابن الأجاويد " ثم أدارَ أخمصَ مسدسه تجاه البدوي وقال : " مِنْ أخ لأخيه " رفض البدوي أن يأخذَ المسدس غيرَ أن ملحم حلفَ :

" وحْيَاةْ هالبطل إنك تأخذه " وأشارَ إلى مزار النبي هابيل في تلال السنديان ، وفهمَ غالبُ أن ملحم قد أعَدَّ له هذه المفاجأة العذبةَ منذ أيام فقدْ أحضَرَ عناناً جديداً للمُهْر .

ونظَّفَ غالبُ ركناً فسيحاً في حَوْش الدار وأحْضَرَ التِّبْنَ والشعيرَ لفهد الليل ، ثم ملأ سَطلَ الفولاذ ماءً وحَمَلَهُ إليه وجلَسَ أمامَهُ وراح يرنو إليه وهويأكلُ فغَمَرَته السعادةُ وهويرى بين يَدَيْه مُهْرَهُ الذي طالما حَلُمَ به ، وفَكَّرَ : ما الذي ينقُصُهُ ليكوْنَ مثلَ اليوزباشي الذي زارَ الأميرَ ؟ إن الأميرَ الذي يرتجفُ الفلاحون لدى ظهوره ، ويتحدَّثُ عنه الجميعُ هَمْساً .. قد نزلَ من مضافته إلى باب الدار ليستقبلَ اليوزباشي ، وبدا أن الأميرَ يتملَّقَه ويريدُ رضَاه .. فلماذا لا يكوْنُ غالبَ مثلَ اليوزباشي ؟ .

حَلَّ الليلُ وغالبُ يؤنسُ مُهْرَهُ ويحتفي به ويحلُمُ .. حتى غَفا أمامَهُ .

إنقضى موسمُ الحَصَاد وامتلأ بيدرُ الامير بالقمح المذهَّب ، وصارتْ أعباءُ العمل والبيطرَة في دار صايل أقَلَّ عما مضى ، وكبُرَ غالبُ وفهدُ الليل . **وفي دَيْر القمَر تألَّمَتْ نورا من يَدِها** ، سَخَّنَتْ أمُّها الماءَ وأذابَتْ فيه الملحَ ومَسَّدَتْ يَدَها .. وفي اليوم الثاني دَهَنَتْ يَدَ نورا بزيت الزيتون ولَفَّتْ حَوْلَ المعصَم خيْطَ قطنٍ أبيض .. وفي اليوم الثالث وضَعَتْ في عُنُق نورا صليباً صغيراً بسلسلة ناعمة ... وإذْ نزَعَ المُجَبِّرُ لُصَاقةَ زلال البَيْض والشَّبَّة عن ذراع غالب وسَألَهُ :

" عَمْ توجَعَكْ ؟ " ... رَدَّتْ نورا : لا ! .

وقالت بَدَوِيَّةٌ إن فهدَ الليل ما كان يَعْدو ... كان يَطيْر عندما هَوَى غالبُ عن صَهوته بين الرُّجُوْم .

وفي صباح صافٍ إقترَبَ غالبُ من أمه وهي ترفَعُ ملاءةً إلى حَبْل الغَسيْل وسَألَها إن كانت ستَبْعَثُ شيئاً إلى عفرا .. فارتعشَ قلبُها ، نظرَتْ في عينيه وسألَتْهُ : " وَحْدَكْ ؟ ! " ... هَزَّ رأسَهُ ومَضى ، والتَمَعَ في الشمس زغبٌ ناعمٌ غفى فوق شَفَتِهِ .

في صبيحة اليوم التالي وقفَ أمامَ مُهْره في مَرْج الزنابق وسألَهُ : " شو رأيك ؟ ! " .. فرأى طَيْفَ نورا في عَيْنَيِّ فهد الليل ، ضَمَّها إلى صّدْره وأغمَضَ عينيه ، تضَوَّعَ جَسَدُها الأنثويُّ في أنفِهِ ، وأحَسَّ بخفق صدرها الفَتِيِّ ينبضُ في دَمِهِ .. دافئاً ، وحانياً ، وندِيَّاً ، وراعشاً . تَحَسَّسَتْ يَدُهُ إنخطافَ خصْرِها .. شَفَّتْ نفسُهُ .. تواثَبَتْ وإرتَفَعَتْ إلى سَمْتِها .. وذابَ في أشواقِهِ . مَطَّ فهدُ الليل عنقَهُ وإشتَمَّ شَعْرَ نورا ، وخَدَّها ، وصارَ رأسُهُ الدقيقُ عند رأسيهما . سَحَبَتْ نورا خصرَها من ذراعي

غالب .. وكَشَفَتْ عن ذراعه الرِّدَاءَ ، تَفَقَّدَتْ الذراعَ التي كانت مكسُورةً .. قَبَّلَتْها ، رَفَعَتْها وضَمَّتْها إلى صدرها ، أغمَضَتْ عينيها ، إبتَهَلَتْ ، ثم تقدَّمَتْ من فهد الليل ، عانَقَتْهُ ، بَاسَتْهُ في صَبْحته – حيث يبُوْسُهُ غالبُ كلَّ يَوْم ! ــ ورَحَلَتْ .

تابَعَها غالبُ بعينيه وهي تبتعدُ وتصعدُ غابات الصنوبر ولَّما لم يعُدْ يَراها ظلَّ في مكانه كأنه مُسَمَّرٌ ، غير أن فهد الليل أيقظهُ من شروده وتبعَ نورا ، مشى غالب خَلفَهما ساهماً .. لم يُرِدْ ان يُزعجَ فهد الليل الذي رغبَ في مرافقة نورا ، وكان يكفي أن يناديه : " يا فهد الليل ! " حتى يتوقف . ظلَّ فهد الليل يمشي وراء نورا حتى دخلتْ دارها في دير القمر فوقفَ الحصانُ خارج الباب بينما وقف غالبُ يتأمَّلُ دار نورا والكنيسةَ الجميلة التي تقابلها ، و لم ينتبه للأب جرجس الذي كان يُكلِّمُ رجُلاً عند الباب بينما كانت عيناه على نورا ، وغالب ، وفهد الليل .

إقتربَ غالبُ من باب الكنيسة ، خلع حذاءه ، ودخلَ فقبَّلَ يَدَ الأب وطلبَ دعاءه ثم عَرَّفَهُ بنفسه ، تفكَّرَ الأب قليلاً ثم همسَ كَمَنْ يُحدِّثُ نفسَه : " الجرهمي ! .. غالب الجرهمي " ومَدَّ ذراعَه قائلاً : تفضل يا بني . تَمَشَّى غالب في فناء الكنيسة ، وجَالَ فرحاً في أرجائها الفسيحة ، وأدهشتْه الأعمدةُ الحجرية البيضاء المنحوتة ، والمَنمنمَات المنقوشة على الأقواس ، ثم دخلَ إلى بَهْو المذبح فركَعَ أمام السيدة العذراء وابتهَلَ إلى الله في قلبه فهو لا يحفَظُ شيئاً من الكتب السماوية . نهضَ ونظرَ إلى الشموع مختلفة الحجوم والألوان التي يأتي بها عبادُ الله من كل أصقاع الأرض ، ولمحَ الأبَ واقفاً فاستأذنه في ان يأخذَ شمعةً ... ومِنْ بين مئات الشموع المتراصَّة سحَرَتْ غالبَ شمعةٌ صغيرة ، إنها تحت الإفريز الحجري .. إنها الثالثة من اليمين ..بيضاء وكعبُها ورديّ .. وأحَسَّ أنها تناديه ، وإذْ لامَسَتْ أصابعُهُ الشمعةَ وسَحَبَها إليه ذُهلَ الأبُ واقشَعَرَّ بَدَنُهُ ...فهو يذكُرُ جيداً صاحبةَ اليد الناعمة.. الشفيفة والبَضَّة التي وضعتْ هذه الشمعة هنا قبلَ شهرٍ : نورا !

غير أنه لا يعرفُ أنها وضعتْها بعد لحظات من سقوط غالب عن مُهْره في تلال السنديان ، وأنها خضَّلَتْها بصلواتها الشفيفة ، وأدعيتها الحانية...وأنَّ قلبَها يريها غالبَ بعيداً كانَ أو على مرمى قلبٍ من قلبها ، وكان غالبُ ، في صمت قلبه وتوقد عقله ، يُصغي لانخطاف الضوء في صلواتها ، ثم يئنُّ وينتشي في إنسراب النور حين يندلقُ الألق من تواثب روحها .

ما إن خرجَ غالبُ من الكنيسة وغادرَ دير القمر حتى دخلَ الأبُ جرجس دارَ نورا . في الصباح التالي لاحظتْ عفرا أن أخاها غالبَ لم يأكلْ ، صّبَّ لنفسه فنجاني قهوة مُرَّة ، قبَّلَ فؤاد ، حضنَ عفرا بين ذراعيه بقوة ، شعرَتْ أن عظامَها تئن لكنها خجلتْ ان تقولَ : آخ ! ، وقفَ عند باب المضافة ونادى : " فهد الليل ! " .. فجاء الحصانُ إليه ، نزلَ إلى وادي الزنابق وفهد الليل يتبَعُهُ كظِله ، تَسَلَّقَ الكتفَ الشمالي للوادي ، وإذْ بانَ مَرْجُ الزنابق إنتابَهُ ،كما لم يحدث له من قبلُ ، قلقٌ

مباغتٌ ، واستبدَّ به شذىً من هواجسَ غامضة ، جلسَ على الأرض صامتاً وجالَ فهدُ الليل في ظلال الصنوبر . إرتفَعَتْ شمسُ النهار حتى تقاصَرَ ظلُّهُ ونورا لم تأتِ . سَحَبَ ساقيْهِ إلى صَدْره ، حضَنَهما وشبكَ كفَّيْه فوقهما ، أسنَدَ ذقنه على رُكبتيْه وعيناه تحدقان في زنبقة صغيرة أمامَه ، عاد فهدُ الليل ووقف خلفَهُ صامتاً ، لقد رافقَه أكثرَ من سنتين و لم يرَه مَرَّةً على هذه الحال ، مَدَّ الحصانُ عنقَهُ وأسنَدَ رأسَه إلى خَدِّ غالب ، ضَمَّ غالبُ رأسَ حصانه بيسراه وذهبَتْ أفكارُهُ بعيداً ، غير انه تذكَّرَ أن الحصانَ مرضَ يوم توعكَ غالب بعد أن هوى عن صهوته ، خافَ على فهد الليل : ربتَ على رأس حصانه كأنه يطمئنُهُ : لا عليك ! .. ثم هَبَّ واقفاً ونزلَ الوادي راجعاً بخطىً حثيثة ، تَبعَهُ الحصانُ ضابطاً خطوَهُ على إيقاع فارسه .. إجتازا الوادي وانبسطتْ الأرضُ أمامهما من جديد ، لم يُعَرجْ غالبُ على بيت أخته .. امتطى صهوةَ فهد الليل وشَدَّ العنان قليلاً ... رفَعَ الحصانُ قائمتيه الأماميتين كأنه طائرٌ يُغادرُ موْجَةً واندفعَ يشقُّ الهواء ، ابتَهَلَتْ نورا أمام المذبح بعد أن وضعَتْ شمعةً صغيرةً ، بيضاء وكعبها وردي ، تحت الإفريز الحجري .

7

قَبْلَ عُرْس ملحم بأيام ، اشترى أبوهُ كَبشيْن من بدوي ، وكَنَسَتْ أمُّهُ أرضَ الدار ، وجَرَشتْ البرغلَ في الرَّحى ، وعلَّقَتْ مناسفَ النُّحاس في صدر بيت المؤْنة بأوتاد خشبية ، وبعد أن أقامتْ مرتبةَ العروس في البيت ذي القنطرتين بَدا لها ان البيتَ ضيقٌ ، كانت واقفة في العتبة تتأمَّلُ أرجاءَ البيت وتفكرُ أن الصبايا سوف يرقصنَ هنا " حَبْل مودَّع " .. وهي تعرفُ أن رقصَ الصبايا كانفلات المهارى ، في البدء تتخاصَرْن في دائرة ضيقة ويَدُرْنَ في أرض البيت ويغنين ، كأنما في براءة :

وَرْدْ ازرعوني

زِيْدوا عَليَّ الماي

لا تقطعوني

وما أن يبدأ الصهيلُ في دمائهن حتى تتضوَّعَ أجسادُهن بنداوةٍ أنثوية ، آسرة وحَانية ، وتتمايل خصورهن وينبثقُ بريْقٌ في أعينهن .. تنهضُ الصبايا اللواتي على شيءٍ من الخَفَر وقدْ أفاقَ الحنينُ في أعماقهن .. فتَتَّسعُ الدائرةُ ويتوترُ إيقاعُ الرقص وتصيرُ الأغاني أكثر بَوْحَاً :

يُمَّا اندهيلو شوقي مَرَقْ خيَّالْ

أنا أحكيلو وانتِ لوذي بالبيت !

ويغدو الدورانُ طيراناً ، وتَرَجُّ أصواتُهُن وضوْعُهُن هواءَ البيت وفحولةَ الرجال ، ويُفصحْنَ في تَحَدٍّ :

رُمَّان كَرْمي للولفْ

لا إيْدْ بْ تلمَسو

ولا عيْن بْ تشُوفو

ولو يطحنوا عظمي

والريح بِ تسُوفو !

مِشْ خايفي من سَيْف بيِّي

ولا خناجر أخوتي ... مش خايفي !

وهُنا ، يَكْشفُ رقصُهُن أرواحَهن ، وأسرارَهن العذبةَ ، ومِنْ بين جميع الصبابا تَظهرُ العاشقةُ في جلاء .. تكشفُها حركةُ رأسها . والمرأةُ التي تأخذُ حَقَّها من حرير السرير تَضحَكُ في رقصها ، والتي لا تستقرُّ نظراتها وترتبكُ الهواجسُ ، والتوجسُ في ثنايا نفْسِها فقدْ واعَدَتْ رجُلاً لا تعرفُهُ جيداً أو فُضَّتْ بكارتُها سراً .. وهذه ترقصُ وهي غائبة . وأمَّا التي يتفجَّرُ صوتُها ، ويتضوَّعُ صَدرُها قبْلَ

الأخريات .. ويلتصقُ شعرُها بنَدَى عُنقِها فهي مُهْرَةٌ بكْرٌ ، ورقصُها يَشي بحركة الدم الذي يَمُوْرُ والذي لم ينفجرْ ، بعْدُ ، في نَبْعِها المختوم ، وإذا كانت العاشقةُ ترقصُ حالمةً فلأنها تتخيَّلُ رقصَها في عيون حبيبها ، إنها ترقصُ له ، بينما ترقصُ البكرُ لمناخاتٍ غامضة تجهلُها فيأتي رقصُها عامَّاً ، ومُبْهماً .. وذهنياً ، وثمة فَرْقْ .

صباح الخير !

أجفَلَتْ أمُّ ملحم ، فقدْ إنسَاقَتْ خلفَ هواجسها ، التي تفهمُها بعمقٍ وحَدْسٍ .. وتعجزُ عن صَوْغها في مُفردات ، وربما كانت تخجَلُ من الإفصاح عنها . رَدَّتْ : " يسعد صباحَكْ ! " .. فقالَ غالبُ وهو ينظرُ إلى مَرْتبَة العروس : " شو ؟ عَمْ تتذكَّري ؟! " .. قالت على الفور :

" سِدّ بُوْزَكْ ! " .. ضحكَ غالب وحضنَها بذراعيه وراحَ يَبُوْسُها .. لم تستطعْ أن تخلصَ نفسها منه فقالتْ : " بَسّ ولاا ! " ..ثم أفصَحَتْ له عن قلقها : " شايفي البيت زغيْرْ " ..فقال وهو يخرجُ : " أنقُلي خابية الماء يا شاطرة ! .. إلى متى سأظلُّ أعلِّمُكِ ! " وأمسَكَ خدّيها بيديه وشدَّهما حتى صاحَتْ : " ولكْ عَمْ توجعني ! " . وعندما خرجَ قالت له : " سْمَاعْ ولا ! ..بَس الأسد خَتْيَرْ صارت الكلاب تنبح ! " . لكنها لم تتردد : صنعَتْ خمسين لبنة من الطين المجبول بالتبن ، وبعد يومين أقامَتْ جدارين ملاصقين لبيتِ المونة تفصلهما مسافةُ ذراعين ووضعَتْ الخابية بينهما على أخشاب مسندة للجدار وسَقَفَتْهما ، وزرعَتْ في تُربة السطح ، فوق الخابية ، عُروقَ النعناع والمردكوش ، وفي اليوم الثاني زرعَتْ شتلةَ مكنسة الجنة ، ووضعَتْ في عُذوقها بيضةً فارغة لتحمي العروسين ، والدار ، من عيون الحاسدين .. ثم عَلَّقَتْ فزَّاعةً صغيرة كي لا تنبشَ العصافيرُ تُربَةَ الحوض ، وما إن أنزَلَتْ السُّلمَ الخشبي حتى رأت عصفورَ " أبو الحن " يحُطُّ على الفزاعة ويزرق فوقها ، وَجَفَ قلبُها ، تطيَّرَتْ من هذه الإشارة ، وتوقعَتْ أنها ، الإشارة ، تتَعلَّق بالعروس القادمة من بعقلين ، كانت واثقةً أنها ليستْ فألاً حَسَناً ، ثم ضحكتْ لأنها تقلقُ من هكذا هواجس ، وأقنعَتْ نفسَها أن عفرا التي أشارَتْ على ملحم بالزواج من زهر الرمان ، لا بدَّ فكَّرَتْ جيداً ..وعندما أفاقتْ أمُّ ملحم في الليل لتشربَ ذهَبَتْ بداهةً حيث كانت الخابية فلم تجدْ سوى عتمة موحشة فتعَزَّزَتْ شكوكُها .. عذَّبَتْها فكرةُ أن تشربَ ، هي وعائلتها ، من خارج البيت ! ..وهي التي كانت تملأ الخابية حتى حافتها وتغبُّ منها .." هيك أطيب " كانت تقول ، وظلتْ تتوجَّسُ من الخابية .. فقدْ إنحبَسَ المطرُ عن تلال السنديان سنوات ثلاث ، إضطرَّ الناسُ فيها ان يتقاسموا خبزَ الشعير ، الجافَّ والأسْوَدَ ، ونفقتْ أغنامٌ وطروش .. وها أمُّ ملحم تشعرُ بالوحدة في هذا الصباح الجاف .. لقد خرجَ صايلُ إلى السهل ، وأخذَ ملحمُ زوجتَه وابنتَه إلى بعقلين ، وامتطى غالبُ

حصانه ومضى .. نهضت لتشربَ وما إن دَسَّتْ فمَها في ماء الخابية حتى رأت ، وأمامَ عينيها مباشرةً ..وعلى سطح الماء صلاً أرقطَ ، إنه بطول شبر ، وإنه ينظرُ في عينيها فاتحا فكَّيْه .. " صَحَّة ! " .. إرتَعَدَتْ ، ورأت غالبَ يقفُ قربَها ، فأشارتْ إلى الخابية ، وهي تفكرُ بإفراغ مائها كله رغم أن جرارَ الماء تُوزعُ عليهم بالعدد بأمر الامير جدعان المعمَّر . التقطَ غالبُ الصلَّ ورضَّ رأسَه بين إبهامه وسبابته حتى سحقه وطوَّحَ به بعيداً ، رفعتْ أمُّ ملحم رأسَها تتابعُ الصل في الهواء ، فرأت أسرابَ طيور اللقلق تحلق ساكنةً في السماء ، فعرفَتْ ان سَنةً جديدةً ماحلةً تُطلُّ عليهم ، قررَتْ ألا تنضحَ الخابية . قال غالبُ : " رايحْ أتطوَّعْ في الجيش " .. لم تجدْ ما تقولُ ، وقفتْ صامتةً وقلبُها يتفطَّرُ على ولدها الصغير ، وهي ، فوق ذلك ، لا تملكُ أن تُعطيه قطرميزَ لبنة ، أو حتى كَمْشة زبيب ، وهي تعرفُ أنها لو وضعتْ له زوادةً من رغيفين فإنه لن يأخذها رغم انه جائعٌ و لم يَذُقْ الزادَ منذ يوم أمس .. ربما لهذا السبب لم يودعْها ، خافَ عليها من إنفجار حنينها ، قال : " إدْعِ لي " وأدارَ ظهرَه وذهب ، توقفَ قليلاً أمامَ فهد الليل ، مَسَّدَ جبهتَه بلطف ثم مَدَّ سبابته وأنزلَها برفق كَمَنْ يرسمُ خطاً ، ففهمَ الحصانُ الإشارةَ : " لا تتبَعْني ! " .

مضى غالبُ راجلاً ، وإذْ رأته يخرجُ من باب الدار دون حصانه تذكَّرَتْ حُلمَها وانفجرَتْ في بكاء مُرٍّ وهي تُتمتمُ : " يا إمي ! شفتَكْ بلا حصان وعَمْ تقولْ لي : رَضعيني ! " .. إرتَخَتْ ركبتاها .. شعَرَتْ أنها تَترنح ، جلسَتْ على الأرض قبلَ أن تقعَ رغماً عنها ، وكلما نظرتْ إلى الحصان تجدَّدتْ لوعتُها وإرتفعَ نحيبُها ، حاولتْ أن تنهضَ إلى الحصان وتضمَّهُ فلم تقدِرْ ، غير أن الحصانَ فاجأها بأن جاء هو إليها ، حَضنَتْ رأسَه وقبَّلتْ وجهَه ، فشعرَتْ بنداوة تُبلل خدَّهُ وذهلتْ : الحصان يبكي ..فهد الليل يبكي .. هنا ، هنا فقط استيقظتْ في روحها غريزةُ الأمومة ، ورغم إنكسارها وحاجتها لمن تبكي بين يديه ، نهضتْ وهي تتحامَلُ على أطراف روحها : كفكفتْ دموعَ الحصان ، بحثتْ عن سطل الفولاذ كي تسقيَ فهدَ الليل ، واتخذتْ قرارَها دون تردد :

الحصان يشربُ من صحيفة الماء التي داخل البيت وهي تشربُ من الخابية حيث سقطَ الصل !

ثم بحثتْ في فكرها عن شيءٍ تطعِمُهُ للحصان .. اهتدّتْ إلى فكرة : أسندَتْ السلمَ الخشبي على الخابية واقتلعَتْ شتلات مكنسة الجنة ، والذي يعرفُ ما لهذه النبتة من مكانة دينية عندنا ، وما تعنيه لإمرأة ورعة كأم ملحم يفهمُ أنها غامرَتْ بمصيْرها في الآخرة في سبيل فهد الليل ، الذي هو إبنُها في صورة حصان .

8

(.... وعندما أيقنَ غالبُ الجرهمي أنه قادرٌ على البطش بخصومه ، إنبثقتْ في روحه بُروْدةٌ نازلة ، ضياؤها باهتٌ ونازل : حَبَّةُ قهوة خضراء . ومِنْ عين دارا التي إتخذها مقراً لإمارته كان يرى لبنانَ كلها بعيني صقر جارح ، وفي رأسه دفعَ الإحتمالات إلى أقصاها ، وبأناة وطدَ أركان حُكمه ، بَناها لبنةً لبنة ، صَمَّ أذنيه عن المتملقين ، وفهمَ رغائبَ انصاره ومدى ولائهم ، وعرفَ أنواعَ اللفافات التي يدخنون ، وقبْلَ أن يجتاحَ إبراهيم باشا بلادَ الشام كان غالبُ يُعدُّ العدةَ لقتاله ... ويوم إمتدَّتْ إمارتُهُ لتطالَ حماه وحلب توجَّسَ ابنُ أخيه صقر الجرهمي : " كلما إتسعَتْ الإمارةُ إستحالتْ السيطرة .. " وكان واضحاً أن صقرَ يرى في إمتداد الإمارة نذيرَ شؤم وعلامةَ إخفاقٍ مُضمَرٍ ولكنه محققٌ ، وكان ينتظرُ كلمةً من عمِّه ، لكن غالب لم يخرجْ عن صمته ، حنقَ صقر واندفعَ في سَيْلٍ من التحليلات وأمثلة من التاريخ دَرَسَها في أوروبا ... وبعدَ أن استنفذَ آراءَهُ أخذَ يطرحُ الأسئلةَ ويجيبُ عليها بنفسه ، ثم أرادَ ان يعززَ وجهةَ نظره : فتحَ كتاباً أمامَ عيني غالب وقال :

" إقرأ هذه الصفحة وتأكدْ بنفسك ! " .. ظلَّ غالبُ صامتاً ، إرتبكَ صقر و لم يعدْ يعرف ماذا يفعلُ بيديه الممدودتين ، نظر غالب في الكتاب ورأى خطوطاً نزقة تحت السطور وحواشٍ في الهوامش ، أطبقَ الكتابَ وانزلقتْ عيناه من على إسم المؤلف إلى المترجم إلى عنوان الكتاب :

" سُبُلُ السيطرة والقيادة " .. نظرَ في عيني صقر وقال : " بمثل هذه الكتب أمْسَحُ طيزي ! " ...وقال لي فؤاد ابنُ أخته عفرا أن غالب وصقر كانا يطيران على إرتفاعين مختلفين ، وأن إنفلات الكلمات النابية من لسَان خَاله الامير غالب عائدٌ إلى سنوات خدمته في الجيش التركي .. حيث شبَّ غالب واختفى الزغبُ العافي فوق شفتيه وأطلَّتْ شعيراتٌ سوداءُ خجولة ، إضطرَّ إلى حلاقتها كل صباح في ثكنة " المسْميَّة " لان آمرَ الدفعة سليمان آغا رجُلٌ لا يرحَم : " يفتتحُ نهارَنا بالتفتيش على الهندام ويمرِّرُ يدَهُ على وجوهنا فهو لا يَقْبَلُ إلا الحلاقة الطازجة ، وقد أرادَ محمد أرمنازي أن يتشاطر .. حلقَ ذقنَه في الليل ونام حتى الخامسة .. ثم صدَحَ بُوْقُ التجمُّع فاصطفَفْنا أرتالاً ساكنة ، وإذْ ظهرَ سليمان آغا ضربْنا الأرضَ بأقدامنا ضربةً قويةً واحدة دون أن يهتزَّ لواحدٍ منَّا شفةٌ أو رمْش ، وشقَّ سليمان آغا طريقه بين الأرتال وراح يتفقدُ ذقوننا ، ثم وقفَ أمامنا صامتاً وحَوْله معاونوه ..أشار بإصبعه .. فخرجَ أرمنازي ، جاري في المهجع ، حَيَّا سليمان آغا ووقف صامتاً كتمثال . قال سليمان آغا : " هذه ذقن عسكري في وجَاق القبيقول ؟ ألم أقُلْ أريدُ ذقناً مثلَ كِسِّ الشرموطة ؟! دُرْ ليرى الجنودُ وجهَك ! " .. والتقتْ عيناي بعيني أرمنازي ، بَلَعَ ريقَهُ ، وفهمتُ ما يعتملُ في دواخله في هذه اللحظة العاتية . لم يكتفِ سليمان آغا بهذا الإذلال رفَسَ أرمنازي على رُكبَته كما

تُرْفَسُ النعجة .. ورأيتُ أرمنازي ينقضُّ على سليمان آغا بسكِّيْن يُسمُّوْنها في حلب كندرجية ، إنقضَّ معاونو سليمان آغا على أرمنازي بأخماص البنادق ، لكن سكينَهُ كانت قد خزَقَتْ صدرَ سليمان آغا الذي ظل واقفاً والدمُ يندفقُ من صدره ويتفشَّى إلى زناره ثم يقطرُ من حافة سرواله فوق الكاحل .. أعطى أوامرَه لمعاونيه : " أتركوْه " ، ظللنا واقفين قرابةَ ساعة .. وتحرَّكَ أرمنازي على الأرض .. جلسَ ونظر في وجوهنا ورأى سليمانَ آغا حَيَّاً ، وكان يظن أنه قتله .. وقعتْ عينا أرمنازي على سكينه ، حَمَلَها وطعنَ نفسه في العنق.. ثم سحبَها وغرزها في بطنه .. نهض وهو يحركها في أمعائه .. فأغميَ على عشرة منا وتقيءَ خمسون وسقط أرمنازي على الأرض ثم همدَ دون حراك . وقررَ سليمان آغا إستمرار التدريبات في المكان ذاته ... "

بَرَعَ غالبُ الجرهمي في ركوب الخيل والرماية ، وحَازَ على ثقة رؤسائه الذين منحوهُ رتباً يستحقُّها.. وازدانَ صدرُهُ بالأزرار الذهبية والشرائط اللامعة ، ودَقَّتْ جزمتُهُ أرصفةً كثيرة في دمشق فأخرَسَتْ أصواتَ الباعة وأنزلَتْ المارةَ عن الأرصفة .. وجعَلَتْ الشوارعَ تهدأ مثل أمواج البُرَك .. وقادَ غالبُ كتيبةَ خيَّالة في النبك ، وكان مسؤولاً عن بريد العاصمة .. ثم حَلَّ مكان سليمان آغا في تدريب الجنود على ركوب الخيل وأكل الثعابين .. قبْلَ أن يُعيَّنَ قائداً لأحد وجاقات القبيقول في فرقة المردَة .. وذات مساء وصلَ إلى مسامعه معلوماتٌ غامضة عن مقهى الغوطة الذي يتوسط شارعَ حطين في دمشق . لم يأبهْ للتفاصيل فالمسألة واضحة : فوضى في منطقة أوكلَ أمنُها إليه ، إعتبرَ ذلك تقويضاً لهيبته ونيلاً من شخصه ، وبدلَ ان يُبلغَ رئيسَهُ كما يقضي واجبه العسكري ، أخذَ يُشكلُ في ذهنه دوريته الصباحيةَ : غالب مخملجي ، محمد العلمين ، هايل جمول ، نايف الغضبان .. وكانوا جميعاً من أبناء منطقته ، ومن مذهبه .... ولطالما رأى كيف يُنعَتُ المسيحيُّ بالكافر وتُقلبُ عمامتُهُ ... وكان في الشوارع " طاروق " وهو منخَفَضٌ في وسط الطريق ينحَطُّ عن رصيف المارة نصفَ متر وعرضهُ متران .. تسيْرُ به البهائمُ وتتجمعُ فيه الدوابُ المحمَّلة وتملؤهُ المياهُ الأسنة في الشتاء والقاذوراتُ في الصيف .. وكان المسلمُ يقولُ للنصراني : " طَوْرقْ ! " فينزل المسيحي صاغراً .. أو يناديه صاحبُ حانوت وإذْ يقترب يصفعُهُ ويأخذ عمامتَه ويرميها إلى جَاره .. وكان على المسيحي ان يدفعَ الجزيةَ عن عنقه والخراجَ عن عقاره والفيءَ عن ممتلكاته .. وكثيراً ما أدَّى ذلك إلى تدَيُّن بعض النصارى بالإسلام .. وبعضُهُم قَلَّدَ المسلمينَ في لباسهم ، وقد قرأ غالبُ الجرهمي بنفسه مرسوماً يمنعُ النصارى من التشبُّه بالمسلمين :

" صَدَرَ مرسومنا هذا المطاع .. فالبادي : النصارى عندكم يقلدوا الإسلام .. فحذروهم ونبهوا عليهم لا يلبسوا إلا ملبوس أزرق وعمامة سوداء ونعال أسود وإن خالفَ أحدهم فمالُهُ لا يُغني عنه وبوصول هذا المرسوم من ديوان الشام على يَدِ رافعه فخر أقرانه جندي باشا أرقداش محمد آغا تعملوا

بموجبه .. " .. وكان غالبُ يمقتُ التمييز بين الناس ولا يطيقُ اللغةَ الركيكةَ .. ويتعاطفُ مع المسيحين لأن ذلك متأصلٌ في طبعه ..لا لأن نورا منهم .. وغالب يعرف أكثر من غيره أن الدولة العثمانية لا تأبه للإسلام إلا بقدر ما يخدمُ تطلعاتها ..وتضاعفَ كرْهُهُ للأتراك وهو يرى ان النساءَ والأولادَ لا يتجاسرون على المرور في شوارع الشام خوفاً من الإغتصاب ..وكانت الاموالُ التي تصلُ زعماء الوجاقات من الخزينة لا تكفي لنفقاتهم فأخذوا يعتدون على الناس .. والوالي ضعيف غير قادر على ردعهم .. وبدأ غالبُ يفكرُ محاربة الأتراك ، ويسألُ سراً عن رجال وجماعات يقاومون .. وتفاقمتْ وتناقضتْ أزماتُ الباب العالي وقويتْ الميول الإنفصاليةُ للباشاوات بعد مقتل سليم الثالث ومصرع مصطفى بيرقدار .. وألغى محمود الثاني نظامَ الإقطاعيات العسكرية .. وسَرَّحَ فيلقَ الإنكشارية الذي يضمُّ أولادَ سوريا ، وفهمَ غالبُ ان الدورَ آتٍ عليه فتمرَّدَ على الباب العالي ومعه جنوده الذين فرُّوا بأسلحتهم وأعلنوا ولاءهم له ، فحاصرَ تلالَ السنديان واحتلَّها بعد أن أنذرَ جدعان المعمر وطلبَ إليه أن يُسَلمَ التلالَ دون مقاومة ، هربَ آلُ المعمر إلى وادي التيم من جديد ، وهناك راحوا يُعدُّون للإنتقام من عائلة الجرهمي ..ولاسترداد سلطتهم في تلال السنديان ... وما يُقالُ عن أن غالب هاجمَ التلالَ لينتقمَ من جدعان المعمر لان الأخيرَ رفضَ تزويجَ إبنته فدوى لملحم الجرهمي قائلاً : أزوجُ ابنتي لابن أبو الضباع .. فهو مجرد لغو ، لأن غالب كان على يقين من أن الأتراكَ سوف يهاجمونه .. فاختارَ مكانَ المعركة .. أرادَ أن يقاتلَ في ساحة يعرفها ، وفضلاً عن ان آلَ المعمر قد طغوا واستبدوا برقاب الناس فإن غالب يعرف أنهم شديدو الولاء للأتراك وبقاؤهم في ساحة معركته يفتحُ خاصرةً في جبهة حَربهِ التي لم تتضحْ تخومُها في رأسه .. ويومَ دخلَ دارَ الإمارة في تلال السنديان عَبَرَ فوقَ البلاطة المرصودة ، وتفقدَ البيوتَ والقاعةَ والليوان والإسطبلات كأنه يبحثُ عن شيء .. وقدْ وجدَهُ أخيراً : مخازن الحبوب ! .. فأمَرَ بتوزيعها على الناس ..وأمرَ الناسَ أن يتابعوا أعمالهم .. و لم يكن غالبُ يجلسُ في القاعة .. كان يروْقُ له أن يستريحَ في الليوان الذي على يمين الداخل من باب الدار .. حيث كان يستلقي على ظهره بلباسه الحربي بين القنطرتين ! ...) إرتعَبْتُ ، أغلقتُ كتابَ إبراهيم وأنا أفكرُ : يا إلهي! كان يستلقي هنا .. حيث أجلسُ أنا الآن ! ..شعرتُ بالخوف .. أخفيْتُ كتابَ إبراهيم وذهبتُ إلى زاد الخير .

9

بَيْنَ ديوان التجنيد ومقر حامية شهبا مئةُ خطوة ، سألَ غالبُ حارسَ المقر :

" هُوْن بيتطوَّعوا بالجيش ؟ " .. فأشارَ الحارسُ بإصبعه إلى ديوان التجنيد ، دخلَ غالبُ وقال لهم :

" بَدِّي إتطوَّع " .. سألوه عن إسمه وعمره ... ثم أبلغوْهُ أن يعودَ بعد ثلاثة أيام لتنقله قافلةُ البريد إلى ثكنة المسميَّة فهناك مَن سيقرر أمرَ تجنيده ، قال لهم إنه يستطيع الذهاب وحدَهُ فأعطوه قصاصة ورق ليُبرزها هناك ، وعاد غالبُ إلى تلال السنديان وتركَ حصانه فهدَ الليل في الدار ، فقد يخافُ على الحصان من حياة جديدة هو نفسُه يجهلها ، أخبرَ أمَّهُ أنه ذاهبٌ كي يتطوعَ في الجيش و لم يقلْ لها أنه عائدٌ لتوِّه من شهبا .. قال لها " إدْعِ لي " ومضى راجلاً ، مشى ستَّ ساعات متواصلة من تلال السنديان حتى المسمية على بعد عشرين ميلاً جنوب الشام ، وعندما وصلَ إلى الثكنة كانت الشمسُ تغرُبُ فوقها . أبلَغهُ الحارسُ : " تاعْ بُكْرى الصبح " . إبتعدَ غالبُ قليلاً عن الثكنة وراحَ يبحثُ في الأرض عن عروق الكزبرة والخرفيش ويأكلُها ، وقبْلَ أن يحُلَّ الظلام إختارَ صخرةً يلوذُ بها من هواء الليل ، مَهَدَ التربةَ شرقَ الصخرة بعد أن التقطَ الحجارةَ والحصى ورماها بعيداً ، وما إن استلقى على الأرض حتى غفا ، وعند بزوغ الشمس أفاقَ وهو يشعرُ أنه سمعَ صوتاً ، فتحَ جفنيه فرأى بدويةً عجوز ومعها آتانٌ سوداءُ تقف قربَهُ ، ورأى روايا الجلد السوداءَ طافحة بالماء .. قالت البدوية :

" صبحك بالخير يا وليدي .. عسى ما بيك شَرّ ؟! " .. طمأنها وسألها أن يشربَ فقالت :

" ما يعيش قلبي يا يُمَّا أنطيك روحي ! " .. ضغطَ غالبُ على بطن الروايا الجلدية فارتفعَ الماءُ إلى فوهتها .. غبَّ الماء وقال : " مكثورة الخير " . . ومضى .

- هل تجيد ركوب الخيل ؟
- أيوَه
- بتعرف تقوِّصْ بالبارودة ؟
- بَعرفْ
- بتعرف تقرا ؟
- بتعَلَّمْ

بعثوه إلى الخازن فرمى إليه ببدلة عسكرية فضفاضة وبوطٍ وقال : " تاعْ أبصُمْ " .

بعد سنة كان إسمُ غالب يتردُ في كل الثكنة ، فقدْ منحوه رتبةَ عريف لتفوقه في الرماية ، ثم تفوقَ في الفروسية فسلموه حصاناً أصهباً ومسدساً وقلدوه شريطةً لامعة وأعطوه إجازة حيث زار أهلَه أول

مَرَّة بعد تطوعه ... لَمَحَهُ الأميرُ جدعان المعمر يدخلُ تلالَ السنديان على حصانه فقدْ كان يقفُ لحظتَها على الشرفة الشرقية لقاعته ... فقال لرجاله :

" جانا مرسَال " ودخلَ القاعةَ ، ونزلُ أحدُ رجاله ووقفَ على البلاطة المرصودة بانتظار الفارس القادم ، وعندما إقتربَ غالبُ أكثرَ أدارَ الرجُلُ ظهرَهُ وصعدَ إلى القاعة وقال للأمير :

" هذا غالب إبن صايل " .. نظر الاميرُ جدعان في وجْه محدثه ، صمتَ قليلاً ثم خرجَ إلى الشرفة وهو يتمتم : " ليكْ إبن أبو الضباع ليك ! " .. وكانت أمُّ ملحم تجلي الصحونَ في أرض الدار لحظةَ دخلَ غالبُ وقال : " عوافي يا صبية ! " .. لَمَحَتْهُ بطرف عينها دون أن تميزَهُ وقالت بجفاء :

" الرجَالْ مش في الدارْ " .. لكنها شعرَتْ أنها تعرفُ هذا الصوت ! ..وقفتْ في أرض الدار وصحون الفخار في يديها ونظرتْ في وَجْه الفارس .. صَاحَتْ : " يا يَمِّي ي ي ي ! " وطوَّحَتْ بالصحون وركضتْ إليه . وبعدَ أن إلتقطتْ أنفاسَها وهدأتْ قليلاً دخلا البيت الذي كانت فيه الخابية ، جلسَتْ ملتصقة به وأصابعُها تحسَّسُ مَرَّةً ذراعَه ومرةً ظهرَهُ .. ثم قالت له : إخلعْ بوطك ! .. كان يعرفُ أنها تتفقدُه وتريد ان تتأكدَ من سلامة قدميه ! . سألها عن أبيه فقالت إنه يعود بعد قليل .. وإن ملحم أخذَ فهد الليل إلى بِرْكَة السَّرج ..ثم أضافتْ : " الحمد لله سنَة خيْر .. الزرع أخضر وبُرَك الماء طافحة " .. سألها : " وين زهر الرمان ؟ " صمتَتْ وأطرَقَتْ في الأرض :

- صارت في ديار الحق
- وبَتْلَة ؟
- مع ملحم

وإذْ لاحظتْ القلقَ والوجومَ على وجْه غالب أوضحَتْ له : " الموضوع من سَنَة ..ماتتْ في بعقلين " وشعَرَ غالبُ أن أمه لم تقلْ كلَّ شيء .. إستأذنها وأنزلَ الخرجَ عن الحصان الأصهب ، أخرَجَ منه أكياسَ السكر والأرز والقهوة ، واعطى أمَّه قطعة قماش من الجورجيت الأسود ، وقمبازاً كحلياً لملحم وشروال فاصونيه لأبيه ، ومطحنة بُن يدوية على شكل مكعب من الخشب ، ثم حذاءً صغيراً لابنة أخيه بتلة ، وأخيراً شالاً عنابياً وإشارباً أزرقَ ، بعدَ أن فكَّرَ ان الطفلةَ ستكْبرُ ..فرحَ صايلُ بابنه وأدهشتْهُ مطحنةُ القهوة ، إنها تطحنُ بحركة يدوية بسيطة لذراعها ، وساءَلَ نفسَهُ لماذا لم يفكرْ هو بذلك ويَصنَع مثلها . ضمَّ ملحمُ أخاه بين ذراعيه وطمأنهُ عن فهد الليل ، ثم إستأذنه ان يُجرِّبَ الحصان الأصهبَ .. ضحك غالبُ وقال : " انا والحصان عَ حسابَك ! " . وحَمَلَ غالبُ إبنةَ أخيه وقبَّلَها متفادياً النظرَ إلى عينيها ، سألتهُ الطفلةُ : " شفتْ إمِّي ؟! " فقال إنه يخدمُ في مكان بعيد عن بعقلين .. وقال : " تعالي كي نُسَلِّم على الحصان " .. قادها من يدها ، وإذْ خرجَ من البيت ركضَ

فهدُ الليل إليه ، حضنَ غالبُ رأسَ حصانه وتمتم في أذنه : " إشتقتُ إليك يا بو الليل " وقبَّلَ صبحَتَهُ ثم جلس على الأرض مقابل فهد الليل والطفلة في حِجْرِهِ وأخذ يحكي لها قصة حُبِّه لفهد الليل .

عاد ملحمُ وأمامه على سرج الحصان الأصهب جَدْيٌ فقال غالب : " أنا مش ضيف يا ملحم " ردَّتْ أمه : " مين الضيف إلْ أغلى منك " . بعد العشاء استفاقَ حنينُ غالب إلى رُقَّة البقر والصخرة الخاشعة ودعسة الست سارة وارسم الذي التقى فيه فهدَ الليل أول مرة .. سأله ملحمُ : تعبان ؟ ضحك غالبُ وقد فهم قصدَ أخيه فقال : " يالله ! " .

كانت الشمس قد غابت عن خط الأفق عندما نزلا من تلال السنديان : غالب على فهد الليل وملحم على الأصهب ، وإذْ إبتعدا عن البيوت شعَرَ غالبُ برغبة في الغناء فدَندَنَ بصوت خفيض : " ورد ازرعوني .. زيْدوا عَلَيَّ المايْ .. لا تقطعوني " وعندما سكتَ قال ملحم :

" هناك أغنية أحلى ! " .. نظرَ غالبُ صوْبَ أخيه فرآه يبتسمُ ويقول : " ما أحلى نومي عَ طية زندها !! " فانفجرَ غالبُ ضاحكاً .. ثم قال : " يا الله .. الدنيا كيف ! ..والله ما ضحكتْ من سنين ! " .. ثم تجنبَ الحديث عن الضحك والحزن لأنه يقوْدُ إلى الكلام عن مَوْت زهر الرمان فقال : " تعلمْتُ القراءة "

- هذا خبَر يُفرحني
- علَّمَني شابٌ من حماه كان معنا في مهجع المسمية إسمُهُ : علي أبو نبُّوت
- وأنا عندي لك خبرٌ مفرح
- يارب أخبارك مفرحة دُوْمْ
- بَدِّي إتزوج مُزون أبو يحي

إبتهجَ غالب وقال : " هيك الشباب يا بَلا ! .. الله يتمم بالخير .. مزون مُهرة أصيلة وبنت ناس " وأخذهما الحديثُ ، وطافا برجوم رقة المقرونين وبركة السرج ، ثم دارا شمال التلال فترجلا وقاد كل حصانه وصعِدا إلى الصخرة الخاشعة .. ثم دعسة الست سارة فجلسا على الصخرة . قال ملحم : " لازم أخبرك عن زهر الرمان " ... وأوضحَ له أنه بعد أن أوصلَ زوجته وابنته إلى بعقلين ، نام ليلةً عند بيت عَمِّه وعاد إلى تلال السنديان . في الليلة الثانية كانت السهرة عند أهل زهر الرمان في بعقلين ولاحظتْ عفرا أن جميل الحسن ، جارهم ، نظر إلى زهر الرمان .. راقبَتْ عفرا كيف ستنظر زهر الرمان إليه ، ولا تخفى على امرأة مثل عفرا هكذا إلتفاتة تشي بالرغبة . استأذنَ جميل كالآخرين وبعده ببرهة استأذنتْ عفرا وزوجُها .. قالت لاسماعيل : " إسبَقني " وأوْصَتْ إبنها فؤاد أن يتمشى حول دار زهر الرمان ويراقب إن كان أحدٌ سيدخل أو يخرج .. ثم تبعَتْ زوجَها ، قال إسماعيل :

" وين بعثت الولد ؟ " ردَّتْ : "شوي وبيرجَعْ " .. وبالفعل ما إن وصلا الدار حتى جاء فؤاد وهمس لأمه : " مَرْتْ خالي طلعتْ ! " . قادتْ فؤاد واختلقتْ له حجةً كي يسألَ عن جميل الحسن إن كان في داره ، تبينَ أنه ليس في داره ! ، عند ذلك رابطتْ عفرا في بيت زهر الرمان مثل ذئبة .. إنتظرت ساعة ، وعندما عادَتْ زهر الرمان بوغتتْ إذْ رأت عفرا في مواجهتها ، قالت في ارتباك :

" أهلين! .. شو .. رجعتي ؟ " ردتْ عفرا : " إلحقيني عَ العلية " . كانتا وحدهما ، وعلى ضوء الفانوس رأتْ عفرا إبرَ صنوبر جافة عالقةً في شعر زهر الرمان ، خلف رأسها ! .. سألتْها :

" وين كنتِ ؟ " فقالت : " رحت مشوار " . مدَّتْ عفرا يدَها وسحَبَتْ القشَّ والإبر اليابسة من شعر زهر الرمان ووضعتْها أمام عينيها وقالت :

" وفي هذا المشوار كان ضروري أن تنامي على ظهرِكِ ؟ ! ".. ركعَتْ زهر الرمان لتبوس قدميها فركلَتْها. حَمَلتْ ابنة أخيها ونزلتْ ، قادتْ فؤاد وعادت إلى بيتها . نظر غالب في وجه ملحم الذي قال على الفور : " أنا لا أتمرجل على امرأة ..يمكن ، والله أعلم ، حماتي سمعتْ شو صار في العلية .. عفرا سمعتْ من الناس ، ثاني يوم ، إن زهر الرمان ماتت .. "

10

(.... ومستشار والي دمشق هو الذي إختار غالب الجرهمي ليكوْنَ في الوفد الذي يفاوضُ البُراق شهاب أميرَ لبنان الذي أعلنَ ولاءَهُ صراحةً لحُكْم محمد علي في مصر ورفض أن يدفعَ الضرائبَ للباب العالي .. و لم يكن إختيار غالب إعتباطياً فهو قائدٌ عسكري موهوب ويستطيع تقدير استعدادات البراق بإلقاء نظرة على المكان ومن نبرة قادة الجند ، وهو أدرى بتفاصيل الأرض المحيطة بمقر البراق في بيت الدين ، والأهم أن غالب من عشيرة البراق ، ومن مذهبه ، لكن الذي لا يعرفُهُ المستشار أن أخوالَ غالب من الشهابيين .. صحيح ان أمه ليست من البيوت التي تُمسكُ بالأعنة لكنها منهم على أية حال . ويوم رشَّحوا إسمَ غالب طلَبَهُ الكولونيل الإلماني ساندرز إلى مكتبِهِ في هيئة أركان جيش الشام ، قال المترجمُ : " يقول سيدي الكولونيل أن سيادتكم مرشحون لوفد .. ويسألُ عن رأيكم .. " فكرَ غالبُ قليلاً وقال : " أمرُ سيدي ، ويكون التفاوضُ أجدى لو تحركتْ بعضُ سفننا ! " . صمت الكولونيل وسألَ : " وفرنسا ؟! " لم ينتظر غالبُ المترجمَ :

" فرنسا في بيروت ونحنُ في طرابلس ! " .

بدأ التفاوضُ في بيت الدين ، تحدث سعيد باشا عن حرص الباب العالي على صداقة الامير البراق ، وترحَّمَ على جدِّه الثاني في تلميح واضح إلى أن الأتراك دعموا الشهابيين في قتالهم ضد أحمد الجزار وضد الفلاحين الموارنة الذين تمردوا عليهم في أنطلياس ، ولو أن سعيد باشا ترحَّمَ على جد البراق الأول لكان ذلك تهديداً مباشراً بالحرب ! .. ثم قال إن لبنان وسوريا وحدةٌ جغرافية متصلة ! وتحدث عن أهمية ذلك في نجاح التعاون بينهما ، وهذا القول الذي يبدو تعميمياً ويمكنُ إدراجه تحت قائمة المجاملات معناه في لغة السياسة : أنتَ وحدكَ في لبنان ، وحليفكَ بعيد ، في مصر ، وأنت لن تنجح!

رَدَّ البراق : " النجاح من عند الله .. ولا يصيبكم إلا ما كتب الله لكم " تمتم الجميع : صدق الله العظيم ، فليس بينهم من يعرف الآيةَ جيداً ، أو يميزُ بين الآية والمقولة ! . تابعَ البراق :

" مصائر مخلوقات الأرض ومخلوقات البحر شأن من شؤون الله ! " فكَّرَ غالب :

" الأرض والبحر فقط ؟ لماذا لم يذكر السماء ؟! " ثم فطنَ إلى القصد الحقيقي للبراق :

نعم ليس لنا أرض مشتركة مع حلفائنا في مصر .. لكن لنا بحرٌ متصل ! وهو بذلك يؤكد أنه ليس وحدَه ، أو كأنه يقول : أنظرْ إلى السفن الفرنسية في البحر ! .

البراقُ يهدد إذن ، وبالنسبة لغالب الجرهمي فإن المفاوضات قد انتهت هنا ، خاصة ان الامير يهدد وهوييسُمُ ! ، وغالب يفهم جيداً ماذا يعني ذلك : إن البراق لا يُقيْمُ وزناً لسعيد باشا ولا لواليه ولا

لبابهما العالي . ظلَّ غالب صامتاً يُصغي لهم وكيف يقولون شيئاً ويعنونَ غيرَهُ ، وكيفَ ينتقوْنَ كلماتهم ، ويناورون ، ويواربون ،ويداورون كأنهم في حقل ألغام ، إنهم يجسُّونَ الأرضَ في خفة ، يضغطونَ قليلاً ، ثم خطوة ، ثم يجفلُوْنَ من وثوب جَرادَة ! .. " يا إلهي أليسَ هذا ما تفعلُهُ ذئابُ القمح ؟ " .. وتذكَّرَ الذئبَ الذي اصطادَهُ ملحم .. " وهؤلاء ، ألا يمكن اصطيادهم ؟! " .زكادتْ تُفلتُ منه ضحكة ، ثم أيقنَ ان الذئبَ الذي اصطاده ملحم والذي بلون الرغيف المَحَمَّص ساذجٌ إذا ما قورنَ بهؤلاء ! .. والبراقُ خاصةً ! . عاد غالب من شروده وكان سعيد باشا مستمراً في حذلقته المضجرة ، والادهى ان البراق يُصغي ، أو يتظاهر بالإصغاء .. واستمرتْ المفاوضاتُ ساعتين ، وإكتشفَ غالبُ انهم يجدونَ متعةً في هذه اللعبة وأنه الوحيد الذي يضجرُ بينهم ، وهذا أمرٌ طبيعي فهو العسكري الوحيد بينهم . دخلَ رجُلٌ من رجال الأمير البراق شهاب ووقف بباب القاعة ، نهضَ البراقُ ، غابَ دقيقة وعاد ، إنه مرتبكٌ قليلاً ، ففهم غالبُ أن السفن تحركتْ في مياه طرابلس ، إبتسَمَ وهو يقول لنفسه : " أجفلَ الذئب .. إذنْ فقدْ وثبتْ الجرادةُ ! " .. وخطرَ لغالب أنَّ طُعْمَ هذا الذئب من النوع البحري ! . وغالب ليس من النوع الذي تأتيه الأفكارُ وتذهَبُ من رأسه عَبَثاً فهو يريد أن يتحققَ من صحتها ! ... وبعدَ إنقضاضه على تلال السنديان وفرار آل المعمر إلى لبنان ، أرسَلَ أخاه ملحم إلى الامير البراق ليقولَ له : " إن الباب العالي يُعدُّ العدةَ للإنقضاض علينا بعد تمرُّدنا .. " وهي صيغةٌ تصحُّ للمفرد أي أن غالب يتحدثُ عن نفسه ، وتصح للجمع : أي غالب والبراق ! ... ثم جَدَّدَ علاقاته مع ضابط البحرية الإنكليزي الذي كان يُرابطُ في مياه المتوسط ويراقب كلَّ نأمة لبحريَّة فرنسا وطلبَ لقاءَه في عكا . قال غالب للمترجم قلْ له :

" إن الضابطَ الإنكليزي الذي قوضَ خططَ نابليون في عكا كان في مثل سِنِّكَ ! " .. ثم بعثَ غالب إلى ساندرز الإلماني : " هذا الذي يخيفُكُم يرتعدُ من سفينة صَيْد في مياه طرابلس ! " بعد ذلك ، ذهبَ غالبُ بنفسه إلى البراق شهاب وقال له إن الباب العالي قد نفذَ صَبرُهُ وإنه هذه المرَّة سيضربُ وأكدَ له : " وصلتْني معلوماتٌ أكيدة أنهم سيتحركون بدءاً من الغد !! " .. وفي الغد طلبَ إليه البراق شهاب أن ينصحَهُ ! فقال غالب : " نُحصنُ بيروت ونقاتلهم فيها " وكانت هذه الفكرةُ تراودُ البراق .. وأرادَ أن ينأى بنفسه عن هكذا مواجهة فقال لغالب : " هل تقبَلُ أن تقودَ القوات في بيروت ؟ " . فكَّرَ غالبُ طويلاً ثم أجاب : " الواجبُ يجعلني أقولُ نعم " .. وسخرَ البراقُ في سرِّهِ من سذاجة غالب ، فخطة البراق : إذا حدثتْ المعركة ، فليقاتل الفرنسيون ومعهم غالب ضد الأتراك .. نابُ الكلب في لحم الخنزير ! . حَصَّنَ غالبُ بيروتَ ونقلَ قوات البراق إليها .. وذات صباح بدأ الضابطُ الإنكليزي يلعبُ بذيله في المتوسط ! فارتبكَ الأسطول الفرنسي الذي يحمي الأمير البراق وبعثَ غالبُ الجرهمي إلى بيت الدين معاونه علي أبو نبوت ليقولَ للبراق :

" سيدي يقرؤك السلام ويطلبُ إليكَ مغادرة لبنان دون إراقة دماء ! "

ذهل البراق وسألَ : " ومَنْ سيدُك ؟ " .. ردَّ علي أبو نبوت : الأمير غالب الجرهمي .

فكَّرَ البراقُ أن يواجهَ يصمد ، ولكن قواته في بيروت تحت إمرة غالب . فّرَّ وإختبأ في الغابات مع ثلة من حراسه الشخصيين بإنتظار التدخل الفرنسي الذي سيسحق غالب ويعيد الحكمَ والإمارةَ للبراق ، لكن الفرنسيين منشغلون ، لأن ضابطَ البحرية الإنكليزي ما زال يلعبُ بذيله ! .

فرَّ البراقُ من لبنان و لم يعُدْ إليها أبداً في حين توَجَّهَ غالبُ الجُرْهُمي إلى عين دارا .. وتذكَّرَ ما قالتْ أختُهُ عفرا على السطح :

" كان عِنَّا أرض فيها " ورَدَّ عليها يومَها : " بَعْرفْ ! " .. ولكن الذي لم يعرفْهُ غالب الجرهمي أن طراد المعمر إبن الأمير جدعان المعمر كان يراقبُ نجاحاته ، ويتربَّصُ به ، وبينما كان غالبُ ثملاً باصطياده البراقَ شهاب إنقضَّ طراد المعمر على تلال السنديان ورمى صايل ، أبا غالب ، طُعماً للضباع في المضبعة التي بناها صايلُ بنفسه ، وأخبرَهُ صقرُ الجرهمي أيضاً أن أباه ملحم قد قُتلَ عند رُقة المقرونين وأن أمَّه مُزون أبويحى قد ألقَتْ بنفسها في بئر هورا ...

وبينما كانا يتحدثان ، جاء ضابطٌ من ضباط غالب وأبلغَهُ عن جنود ينزلُوْنَ على السواحل ، سواحل سوريا ، إمتطى غالبُ حصانه وذهبَ يستطلع الأمرَ بنفسه . وصلَ إلى السواحل في صباح خريفي جاف ، نظرَ إلى الجنود وهيئاتهم .. إنهم ليسوا من جنود إبراهيم باشا .. ولا من زُلم البراق ...

وليسوا من الإنكليز .. ولا تدُلُّ قاماتُهُم على أنهم من الفرنسيين .... لا ليسوا فرنسيين ...

و لم يخطرْ في بالهِ قط أنهم جنودٌ أمريكيون .....)

مَلاحِق

أ

كذلكَ أختكَ لو لم تُردْ !
بهذا نطقَ الشيخ نصر الدين
لا إبهامَ في نُطق الشيخ ولا أحاجي
أنصِتْ ! كالمطر يُلصِّفُ رُجمةً كذلك نُطقُ الشيخْ
كم واضحٌ نطقُ الشيخ
في وَجْهِ الأمير طراد نَطَقْ
كالراعي يَنهَرُ كلباً
دون مواربة نطقْ
بالحقِّ نطَقْ
وفي الهواء الواقف طوَّحَ بالغمدْ
هكذا نطَقَ الشيخ نصر الدين
فتحَ الشيخ نصر الدين فمَهُ ونَطَقْ :
" كذلكَ أختكَ لو لم تُردْ ! "
ثم فَرَدَ ذراعَه وطوَّحَ بغمد الخنجر
في كَفِّ الأمير طراد إرتعَشَ النَّصل
صمتَ الطاغية ، صمتَ النصل
للحكيم أذنان اثنتان
وللطاغية أذنٌ واحدة
في أُذن الطاغية نطَقتْ أروى
فتحَتْ الاميرةُ أروى فَمَها وقالت :
" أيَعْلُوني مْكَاريٌّ والأميرُ أخي ؟! "
وَجَمَ الطاغيةُ ثم نطقَ بالحُكْم :
" إخصُوْه !
على البلاطة المرصودة قطِّعوا أوصَالَهُ

دُقُّوا خصيتيهِ على الملأ
بالفأس قَطِّعوا أوصالَهُ "
بهذا حَكَمَ الطاغيةُ على فندي الحصَّاد
للطاغية أُذنٌ واحدة
وللحكيم أذنان اثنتان
مَنْ جَسُوْرٌ يغتصبُ أميرة ؟
مَنْ يجرأ على أخت طاغية ؟
مَنْ يفتَحُ فخذيها عُنوةً ؟
وطافراً فوق الرؤوس دَوَّى صوتُ الشيخ
" انتضي خنجراً يا ابنَ جدعان ! "
ذهلَ الحشدُ ، الشيخُ لا يُقيمُ للألقاب وزنا
ذهل الحشدُ وأفسَحَ للشيخ
على الدرَجَات الحجرية صعدَ الشيخ
إلى البلاطة المرصودة تحت القنطرة صعدَ الشيخ
أأكْمَهٌ يُنازلُ طاغية ؟
أضريرٌ يَصُدُّ ضارياً ؟
فوق البلاطة المرصودة وقفَ الشيخ
فوق البلاطة المرصودة وقفَ الطاغية
فوق البلاطة المرصودة وقفَ الهواء
في خفةٍ استلَّ الاميرُ طراد خنجراً
وفي خفة نطَقَ الشيخ :
" أعطني الغمدَ يا ابنَ جدعان ! "
وفي خفة انتزعَ الغمدَ من يد الطاغية وسأله :
" أأنتَ رجُلٌ ؟!
إنْ لا .. فنصرُ الدين لا ينازلُ إلا الرجال
وإنْ نعم .. أعِدْ نصْلَ الخنجر إلى غمده "
انفجَرَ الطاغيةُ غيظاً وَكَضَّ على أسنانه
في غضبٍ طعنَ الهواءَ

طعنَ مرةً
مرتين .. ثلاثاً
وفي كُلِّ مرة يَقلِبُ الشيخُ رسغهُ
" أولجْ يا ابنَ جدعان !"
أيعجزُ طاغيةٌ عن إيلاج خنجر ؟
" أولج النصلَ في غمده يا ابنَ جدعان ! "
ولكن كيف ، والشيخُ يقلبُ غمدَهُ ؟!
لهثَ الطاغية
لقد أُسقطَ في نصلِهِ
كتمثالٍ ذاهلٍ وقف الطاغية
عندها نطقَ الشيخ :
" كذلكَ أختُكَ لو لم تُرِدْ !! "
وفي الهواء الواقف طوَّحَ بالغمد
هكذا نطقَ الشيخ نصر الدين
الشيخ نصر الدين ختَمَ الحكمة
كتب الحكمة ختمَها الشيخ
كتب الحكمة الستة
الكتب الستة
والميثاق .

عن كتاب : أقدارُ القطا

ب

استولى أبو عبيدة بن الجراح على دمشق واستشهد قائدُ جنده الامير الحارث المخزومي من قبيلة مخزوم الحجازية ، فاقتُطعتْ لابن الشهيد منطقةُ حوران بأكملها بأمر من الخليفة عمر ، وحكمَ ذريةُ الحارث حورانَ خمسةَ قرون .. وفي زمن الصليبيين أخذوا كناية شهاب نسبة إلى مدينتهم الرئيسية : شهبا ، ثم أرغمتْهم مجاعةُ 1173 على غزو وادي التيم حيث كان يسيطرُ حاكمٌ صليبي .. فهزموا الصليبيين وقدموا للأمير نور الدين زنكي خمسمائة رأس جندي صليبي .. فاقتطعَ لهم جبال لبنان الشرقية مكافأةً ..حيث أقاموا عاصمتهم حاصبيا ... فرحَ المعنيون بقدوم الشهابيين لأن للمعنيين والشهابيين أصلاً قيسياً ما ساعدَ المعنيين على القتال ضد آل تنوخ وجمال الدين وعلم الدين الذين لهم أصلٌ يمَني . وفي معركة عين دارا انتصرَ القيسيون على اليمنيين وعلم الدين والأتراك ، وصارتْ القيسية تحت قيادة الشهابيين .. الذين اعتنقوا مذهب الموحدين ..

قسطنطين بازيلي

ج

اللجاةُ : شبهُ منحرف ، قاعدتُهُ الكبرى من إزرع إلى شهبا ، والصغرى من المسميَّة حتى الصَّوَرَة الكبيرة .. وفي اللاتينية فإن كلمةَ تراخونيتيدس تعني اللجاة ،أي البلاد الصخرية كما أسمى الرومانُ السَهْلَ الشرقي المحاذي للجاة : هُوْرا ، أي الأرض المرعبة .

سلامَة عبيد

د

.... ، وقدْ انقضى وقتٌ طويلٌ حتى فهمتُ لماذا كان يختارُ قاسم أسبر من بين جميع المكارية والمرابعين ويَبعثُهُ إلى مسيْل هورا على بُعد ميلين من تلال السنديان :

" كاسم آسبير ! انا لازم حطكْ إنتَ تتُّورْ بعدين خرمة لازم إنتَ نار خبز "

وإذْ يبتعدُ قاسم أسبر عن تلال السنديان سائقاً حماريه امامَه ، يقفُ القومندان ساندريه أمام شجرة التوت بكامل هندامه العسكري الفرنسي ، وشاراته ، وجزمته ذات المهماميز النحاس ويرطنُ بالعربية :

" زكيَّة آسبير ! ..إتلعْ نظافة مكتب نحنُ " ، وتصعدُ زكيةُ الدرجات الحجرية ، السوداء والمعشوشبة ويعودُ زوجُها بزكيبتي شيْح ولا ينتهي تنظيفُ القاعة .

و لم يكن قاسم وحده الذي يذهبُ إلى الشيحْ : سليم الفروخي ، فواز الحلبوني ، محمد الاحمد ، شحاذة حمشو ، سالم الكردي .. كل هؤلاء ، وكثيرون غيرهم ذهبوا إلى الشيحْ .

ثم كبرنا ، نحنُ البنات ، فكان إذا غفلتْ إحدانا ، وهي في غمرة عملها ، عن إنحسار ثوبها ، يباغتُها بصوته البارد ولعابه الذي يَسيْل :

" إنتَ! ..إتلعْ نظافة كراسيات مكتب نحنُ " ، لقد إعتادَ ان ينظرَ إلى أليانتا بعيني ذئب ، وقدْ أجبرتني نظراتُه على أكل الثوم في الليل ووضع الروث في مفارق شعري طيلةَ النهار ، وتعمَّدْتُ أن أدخلَ إصبعيَّ في بلعومي كي أتقيأ أمامَه ، فإذا أضفنا إلى ذلك جزمتي الطويلة التي تعمدتُ أن ألبَسَها تحت تنورتي السوداء .. يُمكنُ فهمُ نفوره منِّي ودمدمته لدى رؤيتي : " **خنزيره** إيرلندية " .

ويوم صعدَتْ بَندر الزين الدرجات الحجرية ، السوداء والمعشوشبة ، لم تكدْ تدخل القاعة حتى رأيته يشحطها وراءه من شعرها ويعيدُها سَحْلاً دون أن يكفَّ عن ركلها ، كان واضحاً أنها تمَنَّعَتْ . في المساء ، عندما عاد ابنُها الوحيد ناداهُ القومندان من باب القاعة :

" سالم كردي ! ماما إنتَ يرمي ملابس كُل ....بَعْديْنْ موف طيز بَيَا أمام حضرو نحنُ عشان شرموط ..! " .. وانقضَّ سالم الكردي على عنق أمِّهِ بالعبوة الحديدية يساعدُهُ خالُه نوفل الزين الذي أسندَ رأسَ أختهِ على البلاطة المرصودة ، ودَقَّ عُنقَها كما يُدَقُّ عنقُ الأفعى :

" يلعَنْ حَليبك ! .. بَدِّكْ تفضحيني ؟ ! "

وجاء دور زكية ، لأول مَرَّة ، في اليوم التالي لمقتل بندر ، وقدْ أيقنَتْ أن لرفضها معنىً واحداً : الموت بيد زوجها ! ، فقضى القومندانُ وطره منها وهي مستكينة وراجفة ، وعندما نزلتْ على الدرجَات الحجرية ، السوداء والمعشوشبة كانت أقرب إلى حطام آدمي منها إلى إمرأة في الثلاثين ، وكانت أمي أولَ مَنْ لاقتْها ، حضنتْها وانخرطتا في بُكاءٍ مُر ، فأمي مخبأ أسرارها ، وعزاؤها .

ولا أدري لماذا استثنتْ أمي نفسَها من نظافة القاعة ، حتى جاء يومٌ قال فيه القومندانُ :

" حسيبة الداي ! .. هات سُرعة خرقة بيزا ..واتلعْ نظافة كراسيات مكتب نحنُ "

ذُعرتْ ، أصابها دوار ..انطلقتْ عبر بوابة الدار التي تتسعُ لناقة مُحمَّلة بزكيبتي شيح ، واتجَهَتْ شمال شرق ، ونزلتْ من الكتف الشمالي من تلال السنديان ، دارَتْ حولَ مضبعة صايل ثم ركَضتْ إلى بئر هورا وألقتْ بنفسها في الماء . وإنه لمن سخرية القدَر أن نعلمَ ، في اليوم نفسه ، أن القومندان ساندريه عندما قال لها : " نظافة كراسيات " كان ، لأول مَرَّة ، يعني ما يقول .فقدْ إجتمعَ في مكتب نحن ، وعلى كراسيات ، ثلةٌ من ضباطه ، ومعاونيه ، ومختار تلال السنديان ، والشيخ بوسماعيل حسن ، وعامر تركي ، وفخر زينو . ثمة كرسيٌ واحدٌ ظلَّ شاغراً ، صقر الجرهمي لا يفاوضُ القتلةَ ، صقر الجرهمي تَحَصَّنَ في اللجاة ، ولن يُرسلَ مندوبَه ، لن يأتي مستشارُهُ الشخصي .. ساعدُهُ الأيمنُ لن يأتي ، كان يَشُدُّ من أزر الثوار ، ثمة كرسيٌ سيظلُّ شاغراً ..

إبراهيم الرشماني لن يأتي ، .....

قصاصات في صندوق زاد الخير

هاء

هنالكَ ، في الأرض المرعبة ، شرقَ تراخونيديتس
ثمة ، منذ الأزَل ، صخور هورا اللاصفة
تجثمُ راسخةً ، متخذةً مكانها الوطيدْ
كأنما توميءُ للقوافل في السُّهُبْ
لتلهَثَ عطشى إلى البِرْكةِ الصخرية
حيثُ تتدافعُ الجِمَالُ ، جمالَ البدو المحَمَّلة
وتُمطُّ الخيولُ أعناقَها المتعرقةْ
وإذْ تبُوْسُ الماء
تنظرُ الصخورُ في مَهَابة إلى الظلال الراجفةْ
ويُقرفصُ التاجرُ كاشفاً عن شرواله الأبيض
ليأخذَ في كَفيْهِ حفنةَ ضوء يَسيْلْ
وبعدَ أن تهجعَ الكائناتُ ولا يُسْمَعُ سوى وثوبُ الجنادب في البُوْرْ
ينهضُ غلمانٌ سُمْرٌ ، يَفردُوْنَ الأحمالَ ، ويُدخلونَ أكُفَّهم في كُلِّ خُرْجْ
فيتخلَّى التاجرُ عن حرائره ، ويتخفَّفُ من الشاي
ثم يرفعُ الحنطةَ أعلى من الخيْلْ
فَمَنْ يا سُهُبَ هورا ذاكَ الذي يجزمُ :
أهوَ القوْتُ ؟ أمْ خناجرُ معقوفةٌ
تتربَّصُ بخاصرة الإمبراطورية التليدة ؟
مَنْ يعرفُ ما تُضمرُهُ الأجسادُ الناحلةُ المخاتلة ؟
إنهم يتصَنعوْنَ التبسُّط وعيونُهُم على زيتون روما !
مَنْ يُخضعُ هذي الأشباح المتسترة إلى درجة رهيبة ؟
مَنْ يُرهبُ السراب المتراقص وتلك المقايضات الضارية ؟
إنْ لم يكن صولجانُ أبي ؟!
أبي رومولوس إبن تيموندس الذي اقتحَمَ بوابةَ عكا
أبي الذي خُلقَ ليأمُرْ !

قصيدة ضغائنُ مُضمَرَة للأميرة أرتميس ابنة رومولوس قائد جيوش قيصر في الشرق

و

ولأنه أيقنَ أن أختَهُ قد حَبلتْ من ثعلب ، شَرَعَ الأميرُ طراد يبحثُ عن مشعوذين مَهَرَة .
وكان الثعلبُ يدخلُ الدارَ من بوابتها دون خوف أو وَجَل ، فيقفُ قليلاً فوق البلاطة المرصودة ثم يدخل على مَهَل ، ودون مواربةٍ ، إلى حجرة الاميرة أروى . وقالت زاد الخير إنها كانت تفردُ تنورتَها لتغطي كاحليها عندما يدخلُ الثعلبُ ، كانت تشعُرُ أنه رجُلٌ ، ورأتْ الكلابَ التي تنبحُ على الذئاب وتطاردها ، تربضُ على أذنابها ، وتقعي ، إذْ يعبُرُ ثعلبُ أروى ، هَمَسَتْ في سِرِّها :
" بسم الله الرحمن الرحيم " فوقفَ الثعلبُ ، واستدارَ نحوها ، ونظرَ في عينيها مباشرةً .
و لم يُطقْ الأمير طراد اللمزَ والتعريض ، كما إنه لا يستطيع إغضابَ أخته . حارَ و لم يهتدِ إلى حَلٍّ ، وذات مساء ، وبينما كان مستلقياً في القاعة ، رأى فيما يرى النائمُ امرأةً اتشحَتْ بالأسْوَد.. قالت:
" ماذا تقولُ في أميرٍ يَضعُ رأسَهُ في رأس ثعلب ؟! " ... فلمْ يحرْ جواباً . قالت :
" ضعْ جَرَساً بدلَ رأسَكَ ! " .. استيقظَ وفي أذنه رنةُ جَرس ناعمة ورأى ، على بلاط القاعة ، حَيَّةً حمراءَ تنسَلُّ خارجةً ، ، ظن أنه مازال نائماً ، ثم أرادَ أن يتأكدَ من هواجسه ، وقفَ أمامَ باب القاعة فرأى الحَيَّةَ تسعى نازلةً ، إنها على الدرجات الحجرية ، السوداء والمعشوشبة ، ورآها تَسُلُّ طرفَ ذنبها عن آخر دَرَجَة وتضيع في العتمة . قال لنفسه : " إن الثعلبَ يأكلُ طيورَ الحَجَل ..والأرانب .. فلو عَلَّقتُ له جَرَساً فلسوفَ تهربُ منه الطرائدُ .. ولسوف يموتُ الثعلبُ جوعاً ! " .. وأدركَ أنها على حَق .
كانت السلسلةُ من ذهَب خالصٍ يتدَلَّى منها جَرَسٌ صغير ، وأوضحَ طرادُ لأخته ضرورة تعليق السلسلة في عنق الثعلب " ..كي يميزَهُ الحراسُ ، والصيادون فلا يقوصوه " .
فرحَتْ أروى ، بيديها عَلَّقتْ السلسلة في عُنق عشيقها الثعلب ، ثم انتظرَتْهُ سبعةَ أيام بلياليها .
عادَ الرعاةُ يرتعدون ، يُلوِّحون بأيديهم ويلهثون أكثرَ مما يتكلمون ، ثمة جُثةٌ في مضبعة صايل :
محاربٌ روماني بكامل هندامه ، وأوسمته ، وأسلحته ، وشاراته .. يتمنطقُ بحزام ملكي عريض موشوم بمسامير ذهبية مبرشمة ، إنه يحضنُ الأرضَ كأنه ماتَ فوق امرأة ..
وإذْ قلَبوْهُ رَنَّ الجرسُ ، الجرسُ ذاتُهُ .

عن كتاب : خِفَّةُ أنجم